

شرح ودراسة

لامية العرب

للشَّنْفَرَى

شرح ودراسة
الأستاذ الدكتور
عبد الحليم حفنى

الناشر: مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: ٣٩٠٠٨٦٨

حقوق الطبع محفوظة
مكتبة الآداب (علي حسن)
١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

شبكة الشعر العربي

مقدمة

لم يختلف النقاد سواء في القديم والحديث على أن لامية العرب درة من أئمن ما يحوى الأدب العربي قاطبة، ولذلك توفر عليها في القديم جُلَّةُ الأدباء والنقاد والعلماء بالشرح والتحليل ومحاولة إبراز ما تحتوى من مزايا.

وأما في الحديث: فقد كان المستشرقون أول من نفّض عنها غبار الإهمال وكآبة الانزواء، فإذا باللامية تملأ عليهم نفوسهم إعجاباً وإكباراً، وإذا حديثهم عنها مفعّم بهذا الإعجاب والإكبار، وإذا هم يحرسون على أن ينقلوها بلغاتهم إلى مواطنهم ليمتعوا شعوبهم بهذا الأدب الرفيع، وليضيفوا إلى أدبهم ثروة تساهم في البناء والنماء الأدبي. وعندئذ أخذ الدارسون العرب في العصر الحديث يلتفتون إلى هذه الكنوز الأدبية ويولونها شيئاً من اهتمام، ولكن اللامية بالذات لم تحظَ بما ينبغي أن تحظى به، وأيسرُ ذلك أن تُنقل إلى الشباب وطلاب الثقافة في صورة ميسرة بالشرح والتوضيح حتى يتاح لهم أن يستمتعوا بما تنطوى عليه من جمال أدبي، ومن عمق فني يملأ على المتذوق روحه ووجدانه، بل كانت النتيجة على العكس من ذلك؛ فبدل أن يؤدي الاهتمام باللامية إلى تدعيم لكانها ونفع بمضمونها، أدى إلى شيء من التشويش عليها وزعزعة كيانها، حين حاول بعض الدارسين المعاصرين مجازاة رأي متطرف لبعض المستشرقين محاولاً التشكيك في نسبتها إلى قائلها، والخطورة في مثل هذه الآراء المتطرفة أو غير المثبتة أنها حين ينادى بها من يتولون شئون التعليم وبخاصة في الجامعات يدفعون بعض الأجيال التالية لهم من تلاميذهم إلى مجازاة هذه الآراء. بل الأشد خطورة أن صاحب الرأي قد يُدلى برأيه في صورة المجتهد الذي يحاول تلمس الحقيقة، وقد يصيبها وقد لا يصيب، وهو يعلم أنه مجتهد في رأيه، وغالباً ما يفهم من حديثه ذلك، ولكن تلميذه قد يأخذ رأيه هذا وكأنه حقيقة علمية أو قضية مُسلّمة. وقد اضطررتُ سياقُ البحث العلمي أن أناقش في بحث سابق^(١) هذا

(١) هو كتاب «شعر الصعاليك منهجه وخصائصه».

التشكيك الذى أثير حول لامية العرب، ولكن هذا السياق لم يكن يسمح بشرحها وتيسير معانيها حتى تقرب من أذواق الطالبين للأدب، والراغبين فى تذوق تراثهم الشعري الذى يبهى حتى غير العرب، كما بهرت اللامية المستشرقين.

ولقد حرصت فى هذا الكتاب على محاولة تقريب اللامية من أفهام الدارسين وأذواقهم، وعلى إبراز أهم الجوانب التى تحتوى عليها من الناحية الأدبية، والتى تحقق للدارسين بعض هذه الغاية التى تنشدها، والتى نتمنى أن تحظى بمزيد من اهتمام الدارسين والقائمين على شئون التعليم، ألا وهى إزالة الفجوة بين الشباب العربى وتراثه الأدبى القديم، هذا التراث الزاخر بكل ما ينشده الشباب من متعة وجدانية، ومن مثيرات لمشاعره وعواطفه، ومن دوافع لحماسة وتدفق حيويته، بل إن الشباب حين يتاح له أن يتذوق ما فى هذا التراث سيصغر فى عينه وقلبه ومشاعره كثير مما يُلهى به فى هذه الأيام من أدب رخيص مبتذل مُسِفٍّ، يُعرض عليه مُصْبَحاً ومسيّاً، سواء فى دور اللهو أو وسائل الإعلام؛ أقله الجيد، وأكثره مفسد للذوق والعقل والإحساس، سواء صيغ فى قصص مطبوعة أو ممثلة فى دور اللهو، أو صيغ فى مسرحيات، أو كان فى تمثيلات مذاعة أو مرئية، بل فى كثير مما يُعرض على الناس على أنه شعر أو نتاج أدبى!. مع أننا حين نعرض على الشباب والمتقنين هذا التراث الأدبى القديم فسُنعلمهم كيف يسمو المرء بوجدانه وإحساسه وذوقه، حين يُدرك كيف يكون الأدب الحقيقى فى لفظه وفى معناه، فى خياله وفى تعبيره، فى عمقه وفى دقة حسه، نُعلمهم كيف يسمو المرء بعواطفه، حين يرى مثلاً كيف يصوّر الشعر الحب فى صورته الإنسانية النبيلة التى ابتذلها ما يسمونه اليوم أدباً أو فناً قصورها فيما لا يعدو أن يكون رغبةً بهيمية لا يربطها بالروح والعواطف سبب قريب أو بعيد.

وما أخرج الفتيات والمتقنات إلى دراسة الشعر القديم وتذوقه ليرين الخديعة الكبرى التى يضللن بها ما يسمى اليوم أدباً. حين يصوّر لهن أنهن كنّ بالأمس متاعاً رخيصاً وإماء مستعبدات، وأنّ ما يسمى اليوم أدباً هو الذى يدعو إلى حريتهن، وإلى إعلاء كرامتهن، وما أشد خيبة آمالهن حين يكتشفن أن ما يسمى اليوم أدباً قد أضلهن ضلالاً كبيراً عن الحقيقة، وأن الحقيقة هى العكس؛ فالأدب القديم يجعل من كل شىء فى المرأة موضعاً للجمال، ومجالاً للخيال، سواء فى كيانها المادى أو المعنوى، فأما فى كيانها المادى فكلها مجال للخيال من شعرها إلى قدميها، وفى كيانها المعنوى

مجال آخر راخر فياض بوصف العواطف والخواطر والمشاعر ونحو ذلك، بل إن الشعر القديم لم يكتف بأن يجعل كيان المرأة وحده مجال خياله، وإنما تلمس كل ما يحيط بها أو يتعلق بشأتها، من الديار التي تسكنها أو الراحلة التي تفلها أو الآثار التي حلت بها أو الطريق التي وطأتها، بل أوغل خيال الشعر القديم فيما يتعلق بالمرأة إلى ما هو أبعد من ذلك مما يفيض به الأدب القديم. بينما على النقيض ما يسمى اليوم أدباً أو فناً يركز كل شيء في المرأة، بل يكاد يلغى كل ما فيها إلا شيئاً واحداً هو ما يتعلق بالرغبة الحيوانية، وسيجدن أن الأدب القديم يجعل المرأة قمراً في السماء، بينما يجعلها أدب اليوم مجرد جسد في الأرض، وبينما كانت في الأدب القديم أمنية عزيزة صعبة المنال أصبحت في أدب اليوم مجرد لقمة رخيصة سهلة المنال.

ولو قُدر للأدب القديم أن يُعرض على الناس حتى يصل إلى مشاعرهم وأذواقهم، فسرى القائمون على الأمر، والمستولون عن التربية والتوجيه في وسائل الإعلام كيف أن الأدب القديم يسمو بحماس الشباب وحيويته واندفاعه فيوجه ذلك كله نحو المثل العليا والأهداف القومية والغايات النبيلة، حين يملأ نفوسهم ما يجدونه في الشعر القديم من معاني الشجاعة والإقدام والبأس الشديد موجهاً نحو غايات نبيلة وأهداف سامية، بينما يسجدون ذلك في أدب اليوم يدفع الشباب دفعاً حثيثاً إلى سبل الإجرام ووسائل الانحراف.

وليس أدل على هذه المفارقة العجيبة في الموازنة بين الأدب القديم وما يسمونه اليوم أدباً من أننا حين ننظر إلى شعر الصعاليك وهم طائفة قطعاً الطرق في المجتمع العربي القديم، لا نجد هذا الشعر داعياً ولا حافزاً إلى الإجرام والانحراف كما يفعل أدب اليوم، بل على العكس نجده يدعو دعوة واضحة قوية إلى الخلق والمبادىء، وأن شعرهم ليحفل بما تمثل به الناس في كل العصور ولا يزالون يتمثلون به في الدعوة إلى الفضيلة والخلق.

نريد من كل هذا أن نقول إن تراثنا الأدبي القديم ليس بمعزل عن الحياة، بل فيه كل متطلبات المجتمع حتى حين يجنح إلى المتعة الوجدانية والترفيه العقلي.

ونريد أن نقول إن إحياء هذا التراث الأدبي المجيد يعلم الناشئين أن يحذوا حذوه حين يحاولون التعبير، حيث تكون نفوسهم قد استتقت منه فتأثرت به، وحيث

يعرفون كيف يكون الأدب الرفيع فلا ينحدرون إلى التبذل والإسفاف.
وإذن فليرتفع الصوت بإحياء الأدب القديم وتقريبه إلى نفوس الناشئين وأذواقهم،
وليرتفع الصوت أيضاً بإخماد ما يسمونه اليوم أدباً قبل أن يفسد ما بقى من أذواق
الناشئين ومشاعرهم، وأخلاقهم أيضاً.

فى محيط هذه الدوافع كانت محاولتى لتقريب لامية العرب من نفوس الشباب
وأذواقهم. ولقد رأيت أن مجرد شرح أبيات اللامية لفظاً ومعنى مع إلقاء الضوء على
بعض النواحي البلاغية ليس مما يفي بالغرض؛ فأتبعت الشرح بتعليق لا غنى عنه
يلقى الضوء على صاحب اللامية، صفاته، وظروفه البيئية والنفسية، ونهايته الفريدة،
وعن الصعاليك كأصحاب منهج متميز فى الحياة والشعر، وكان لا بد لى فى خاتمة
المطاف أن أعلق على ما أثير حول اللامية من جدل، وأن أذكر آراء النقاد فيها كدرّة
فريدة من درر الأدب العالمى وليس الأدب العربى فحسب.

والله أسأل أن تكون هذه الدراسة قد حققت ما ينبغي وما أريد.

د. عبد الحليم حنفى

لامية العرب

هذا نص لامية الشنفرى(*) التى سميت لامية العرب؛ لأنها تصلح أن تكون من مفاخر الأدب العربى كله، ويراعى أن هناك اختلافاً فى الألفاظ بين الروايات التى نقلت اللامية، وبخاصة ما بين روايتى الزمخشري وأبى على القالى. وهذا الاختلاف مُنصَّبٌ على الألفاظ، أما المعانى فقد احتفظت بجوهرها فى كل الروايات.

(*) من الطريف أن صاحب مطبعة الجوائب بالقسطنطينية، وأحد ناشري كتاب أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشري يصف الشنفرى بالعلامة، فيقول: «لامية العرب للعلامة الشنفرى» وهذا وهمٌ منه حيث حسب أن الشنفرى من العلماء، وهذه الطبعة ظهرت سنة ١٣٠٠هـ وبهامشها شرح للمبرد على اللامية.

أَقِمْوْا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ
فَلِنَنِي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لِأَمِيلٍ^١
فَقَدْ حُمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمَرٌ
وَشُدَّتْ لَطِيفَاتِ مَطَايَا وَأَرْحُلُ^٢

(١) يريد أنه صمم على أمر معين، و هيأ نفسه له، وهو الرحيل عن هذا المكان إلى مكان آخر؛ لأنه ضاق بهذا المكان وأهله، وعليهم أيضاً أن يهيئوا أنفسهم لذلك، ويتو الأم: الأشقاء من الإخوة أو غير الأشقاء ما دامت تجمعهم الأم، واختار هذه الصلة لأنها أقرب الصلات إلى العاطفة والمودة وهكذا كل ما يرتبط بالأم أو يأتي عن طريقها من الصلات. وهو لا يقصد إخوة حقيقيين، وإنما يريد أنه قرر هجر الناس جميعاً حتى أقربهم إليه. والمطايا يريد الإبل، وإقامة صدورها كناية عن التهيؤ للرحيل، وليس معناه السير فعلاً كما في بعض الشروح، فالنظر الواقعي للناقة أنها إنما تنصب صدرها عندما تنهياً للقيام من بروتها. والشطر الثاني تعليل للشطر الأول، والتفضيل في (أميل) ليس على حقيقته، فهو لا يفاضل بين ميله إليهم وميله إلى غيرهم، وإنما يريد أني كرهت مقامى بينهم وأرغب في مكان سوى هذا المكان، والتعبير بإقامة صدور الإبل تصوير أدبي يجسم المعنى ويبرزه، وهو لا يريد منهم الاستعداد لرحيلهم هم، وإنما يريد استعدادهم لرحيله هو عنهم، وكأنه يشير إلى أنهم لا مقام لهم بعد رحيله، فمن الخير لهم أيضاً أن يرحلوا.

(٢) حمت بالبناء للمجهول: قدرت وديرت. والطفية: بالكسر الحاجة أو التنية المدبرة وكلاهما يصلح هنا. والأرحل: جمع رحل وهو ما يوضع على البعير. ومعنى البيت قريب من المثل القديم (أمر أبرم بسيل) فالعنى أن هناك أمراً عقد عليه العزم وديره في روية وأناة، وحيث يكون صاحبه مقتنعاً به، وهو المراد من (والليل والقمر) فقصوه القمر هنا ليس مراداً بحقيقته، وإنما هو كناية عن التفكير في هدوء ورضا نفس، ويراد به أيضاً أنه أمر لا يرد إخفاؤه، فهو في الضوء وليس في الظلام، والشطر الثاني معناه أن الرواحل والمطايا قد شُدَّت وهو تعبير عن العزم والتصميم، ولطيفات بكسر الطاء عقدنا عليه العزم. والبيت مبنى على سابقه، والمعنى: هيئوا أنفسكم لحادث كبير دير بعزم وتصميم، وهو رحيل عنكم، وهذا يدل على اعتزازه بنفسه، وشعوره بأنه ذو تأثير في إقامته ورحيله.

وَفِي الْأَرْضِ مَنَآئِلٌ لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى
وَفِيهَا لِمَن خَافَ الْقِلَى مُتَعَزِّلٌ^٣
لَعَمْرُكَ مَا فِي الْأَرْضِ ضِيقٌ عَلَى أَمْرِي
سَرَى رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا وَهُوَ يَعْقِلُ^٤
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَلَسُ^٥
وَأَرْقَطُ زَهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَبَالٌ^٥

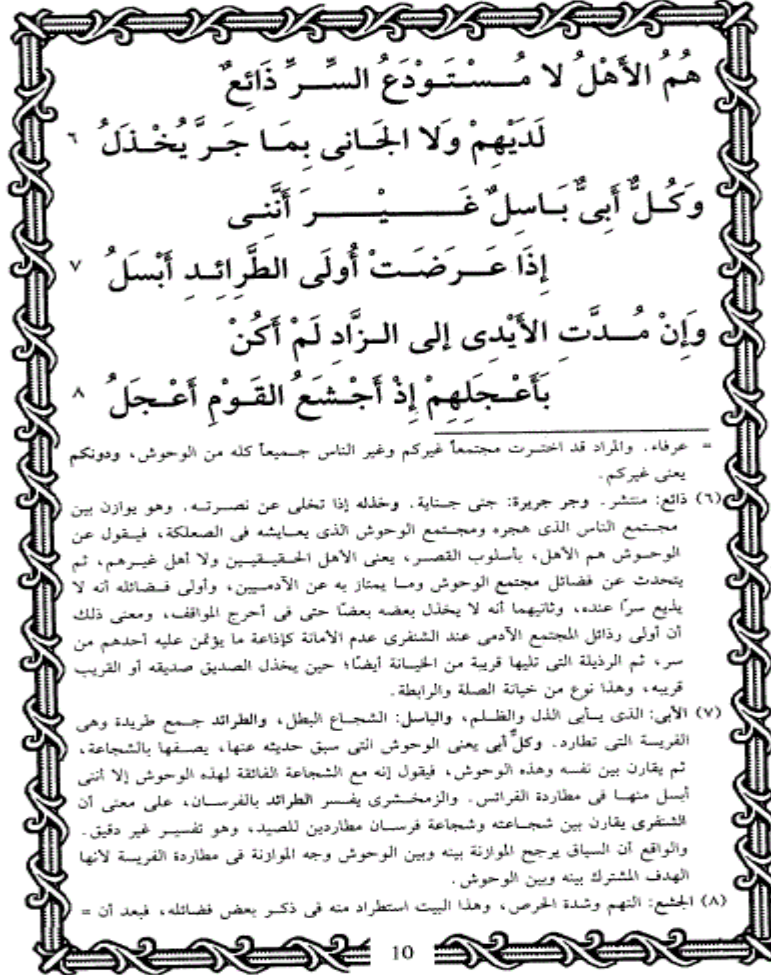
(٣) القائل: المكان البعيد، والقلَى: البغض والكراهية، والمتعزل: مكان العزلة عن الناس، والبيت
حكمته، شطره الأول معناه أن الكريم يستطيع أن يربأ بنفسه عن اللذ والاذى فيهاجر إلى
أى مكان بعيد، والشرط الثاني معناه أن اعتزال الناس أكرم من الإقبال عليهم واحتمال
نفورهم وكسراهم، وتلاحظ الدقة في التعبير في الشرطين، فعند الأذى واللذ يجب
البعد وهذا إذا لم يستطع دفعه، أما عند مجرد الكراهية فتكفى العزلة ولو دون حاجة إلى
رحلة بعيدة.

(٤) العمر: يفتح العين أو ضمها مع سكون الليم الحياة. سرى: مشى في الليل. راغياً: صاحب
رغبة. راهب: من الرهبة وهي الخوف. والبيت تأكيد لسابقه، حيث يحلف أن الأرض
واسعة، سواء لصاحب الحاجات والأمال، أو للخائف، فالأول يستطيع تحقيق أماله في
الرحلة والتنقل، والثاني يستطيع أن يجد الأمن في الرحلة عن المكان المخوف، وجملة
«وهو يعقل» قيد دقيق، معناه أن تحقيق الهدمين السابقين إنما يكون إذا صاحبه التفكير
وحسن التدبير، وهذه الآيات الأربعة السابقة تمثل معنى متكاملًا، هو أنه قرر في عزم
وتصميم أن يرحل عن المجتمع، وأن السبل ليست مغلفة في وجهه، بل أمامه آفاق واسعة
مفتوحة.

وهذا التفكير يمثل بداية الاتجاه إلى الصلابة وقطع الطريق، حيث قرر هجر الناس لا

لينتقل إلى أناس آخرين، وإنما إلى الوحوش والفلوات وما سيتحدث عنه بعد ذلك.

(٥) أهلون: جمع أهل، والسيد بكسر السين الذئب، والعملس الذئب القوي السريع، والأرقط
النمر الذي في جلده بياض وسواد، والزهلول: الأملس، والعرفاء الضبع الطويلة العرف،
وجبال اسم للضبع تقدمت عليه صفته، والمعنى ضبع طويلة العرف والأصل جبال =



وَمَا ذَاكَ إِلَّا بَسْطَةٌ عَنْ تَفَضُّلٍ
 عَلَيْهِمْ وَكَانَ الْأَفْضَلُ الْمُتَفَضِّلُ^٩
 وَإِنِّي كَفَانِي فَقَدْ مَنْ لَيْسَ جَازِيًا
 بِحُسْنِي وَلَا فِي قُرْبِهِ مُتَعَلِّلٌ^{١٠}
 ثَلَاثَةُ أَصْحَابٍ: فُؤَادٌ مُشِيعٌ
 وَأَبْيَضٌ إِصْلِيَّتٌ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلٌ^{١١}

= ذكر أنه يفوق شجعان بيئته من الوحوش استعزذ في ذكر فضيلة أخرى له وهي القناعة وعدم الجشيع، ولكنه اختار هذا المعنى بالذات لأنه قال في البيت السابق إنه أسبق في مطاردة الفريسة من كل مطارد، فخشي أن يظن به أحد الجشيع والنهم إلى الفرائس فأحترز عن هذا بأنه قنوع، وأنه يزاحم في صيد الفريسة ولكنه لا يزاحم في أكلها.
 (٩) البسطة: السعة، والتفضل هو ادعاء الفضل على الغير، والمراد أنه يسدى إليهم غيراً بعدم منافسته إياهم أو مزاحمتهم، والبيت في جملة يعني أنه يلتزم هذا الخلق طلباً للفضل والرفعة.

(١٠)، (١١) التعلل: التلهي، وتعلل بالشئ اليسير: اكتفى به. مشيع: شجاع كأنه في شجاعة وجماعة تنصره. والأبيض: السيف، وإصليت: صليل أو مصلت بمعنى مسلون من غمده. والصفراء القوس وعيطل طويلة العنق. والبيشان يكمل بعضهما بعضاً في المعنى، حيث يقول إني تركت أناساً لا خير فيهم، فمن صفاتهم أنهم لا يقدرُونَ المعروف ولا يجزون عليه غيراً، وأيضاً ليس في قريهم أدنى خير يتعلل به، ثم يقول في البيت الثاني إن لي عزاء عن فقد هؤلاء الناس (يعني المجتمع الذي هجره واتجه إلى الصعلكة) وعزائي عنهم في ثلاثة، هذه الثلاثة تغني عن كل هؤلاء الناس، وهي قلب قوي شجاع كأنه في ثباته محمي ومتصور بشجاعة كبيرة من الناس، ثم سيف أبيض صارم مسلون ومهيأ لكل ما يُدعى إليه، ثم قوس طويلة العنق، جيدة الصنع، وهو بهذين البيتين يدخل في الحديث عن حياة الصعلكة، مبتدئاً بأهم مقومات هذه الحياة، التي تتمثل في الشجاعة الفائقة التي عبر عنها بقوله (فؤاد مشيع) ثم السلاح بتوعيه المهمين عنده: السيف للقتال، والقوس-

هَتُوفٌ مِنَ الْمُلْسِ الْمُتُونِ يَزِينُهَا
رَصَائِعُ نَيْطَتْ إِلَيْهَا وَمَحْمَلٌ^{١٢}
إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهْمُ حَنَّتْ كَأَنَّهَا
مُرَزَّاةٌ عَجَلَى تَرْنُ وَتَغُولُ^{١٣}
وَلَسْتُ بِمَهْيَافٍ يُعَشَّى سَوَامَهُ
مُجَدَّعةٌ سَقْبَانُهَا وَهَى بِهِلٌ^{١٤}

= لرمى الأهداف عن بعد، سواء من الأعداء أو الصيد. والبيتان يمثلان انتقالاً أدبياً
جميلاً من عنصر إلى عنصر.

(١٢) الهتف: الصوت المنغم أعنى صوتاً عميزاً. والملاسة: ضد الخشونة، والمتن: الصلب وهو
الظهر، والرصائع جمع رصيعة: وهي ما يرمح أى يحلى به. نيطت: علق. والمحمل
كمقود ما يعلق به السيف أو القوس على الكتف. فقد وصف قوسه بعدة أوصاف منها أن
لها صوتاً معيناً عند إطلاقها السهم، ومنها أنها ملساء الصلب ليست خشنة أو ذات عقد
تؤذي اليد في استخدامها، ومنها أنها مزينة ومرصعة ببعض ما يحلى به، بالإضافة إلى
الحمل الذي تعلق به، وهذا البيت والبيت التالي متتابعاً لوصف القوس الصفراء العيطل
في البيت السابق.

(١٣) زل السهم: خرج منها، والحتين: صوت معين، وحنّت: صوتت بهذا الصوت. ومرزاة:
كثيرة الرزايا والمصائب، وعجلى: مبرعة. وترن: تصوت برنين، وتغول: ترفع صوتها
باليكاء والعيول. والمعنى أن صوت هذه القوس عند انطلاق السهم منها يشبه الصوت
المتكشوم الحزين الذي يتبعث من أنثى كناقصة أو امرأة تكلى شديدة الحزن، وهذا الحزن
واضح في رنة صوتها وعويلها، والوصف بكثرة الرزايا وبالسرعة يشير بهما إلى حال
القوس في كثرة الرمي بها وفي سرعتها في الرمي.

(١٤) المهياف: السه السديري أو السريع العطش والأول أنسب، والسوام: الماشية التي ترعى،
ومجددة سيرة الغذاء، والسقبان جمع سقب وهو ولد الناقة الصغير الذكر، وبهل يتشدد
الهاء المفتوحة جمع باهل وهي الناقة التي تترك بدون راع أو تترك بدون صرار في =

وَلَا جُبًّا أَكْهَى مُرَبِّ بَعْرِسِهِ
يُطَالِعُهَا فِي شَأْنِهِ كَيْفَ يَفْعَلُ^{١٥}
وَلَا خَرَقَ هَيْقَ كَأَنَّ فُؤَادَهُ
يُظَلُّ بِهِ الْمَكَاءُ يَعْلُو وَيَسْفُلُ^{١٦}
وَلَا خَالَفَ دَارِيَّةً مُتَفَرِّزًا
يَرُوحُ وَيَغْدُو دَاهِنًا يَتَكَحَّلُ^{١٧}

- ضرعها، والصرار يوضع لمنع ولدها من رضعها، والياهل لا صرار عليها. وفي هذا البيت يعود إلى ذكر فضائله بعد استطراده مع القوس، وإنما استطرد معها لأنه شديد الشغف بالقوس بالذات لأنها مصدر حمايته من الأعداء ومصدر معيشته في الصيد، ولذلك يتحدث عنها كثيراً في شعره كما سبق، والبيت صدى للبيئة التي تعتمد حياتها على الرعي، ولصفات الرعاة وتفاوتهم أهمية كبيرة في هذه البيئة، وكذلك يقول إنه ليس كالراعي الأحق الذي لا يحسن غناء سوامه فيعود بها مع العشاء أولادها جائعة رغم أنها غير مصرورة، وجوع أولادها كناية عن جوعها هي لأنها من جوعها لا لبن فيها.

(١٥) الجبأ: الجبان. الأكهى: الأبخر والسيء الخلق أو البليد، والقرب يقسم الميم وكسر الراء الملازم لامراته. وفي الشطر الثاني يتحدث عن استشارة امرأته في أموره تأفياً ذلك. فينتفى عن نفسه الجبن وسوء الخلق، إذ ملازمة الرجل امرأته يدل على كسله وانصرافه عن التكسب والتماس الرزق. وينفى أيضاً أن يكون متعذب الرأي والشخصية فيعتمد دائماً على توجيه امرأته ومشورتها. وعرس الرجل بكسر العين: زوجه.

(١٦) الخرق: المضطرب ذو الدهشة من الخوف، والهيق: بفتح الهاء القليل وهو ذكر النعام المعروف بشدة نفوره وهروبه من مصدر الخوف، والقواد: القلب، والمكاء: نوع من الطير. والمعنى لست جباناً، والمخاوف لا تزعجني، ولست من الذين يسيطر الخوف على أحدهم فيصبح قلبه من اضطرابه كأنه معلق في طائر يعلو به وينخفض.

(١٧) الخالف: الشافه الذي لا خير فيه، والداري والدارية المقيم في داره لا يرحها، والمتفرز: -

وَلَسْتُ بِعَلٍّ شَرُّهُ دُونَ خَيْرِهِ
 أَلَفَ إِذَا مَا رُعْتَهُ اهْتَاجَ أَغْزَلُ^{١٨}
 وَلَسْتُ بِمِخْيَارِ الظَّلَامِ إِذَا انْتَحَتِ
 هُدَى الْهَوَجَلِ الْعَسِيفِ يَهْمَاءُ هَوَجَلُ^{١٩}

- المنفرغ لمقاولة النساء، والرواح عكس الصباح من الظهر إلى الليل، والغدو: من الصباح إلى الظهر. والداهن الذي يتزين بدهن نفسه، والمتكحل الذي يكحل عينيه. ينقى عن نفسه صفات المخشين التي تتمثل في هذه المظاهر من عدم مزاولة العمل، والتفرغ لمقاولة النساء والتشبه بهن في الادهان والتكحل ونحو ذلك.

(١٨) اللعل يفتح العين: القراد وهو حشرة صغيرة مثل البق، ومن الرجال: الضعيل الضعيف، شره دون خيره بمعنى أقرب من خيره، وألف يفتح اللام: الضعيف الذي لا خير فيه لشئ، والروع الفزع، واهتاج يعني خاف وفزع، والأعزل: الذي لا سلاح معه، ينقى عن نفسه التفاهة والضعف والسلبية، ويثبت لها ضمناً عكس هذه الصفات.

(١٩) المخيّار المتحير الضال، وانتحت: اعترضت وأفسدت، والهدى الهداية والمراد هداية الطريق في الصحراء، والهوجل: الرجل الأحق، والعسيف الضال عن الطريق، ويهماء صحراء، وهوجل الثانية مقنطرة لا معالم فيها للاعتداء، وهو وصف للصحراء، ويهماء فاعل انتحت، والمعنى لست متحيراً حتى في الظلام، وحتى في القلاة المقفرة التي تضل سالكها الأحق الذي لا يحسن معرفة المسالك، وأصل التركيب لست بمخيّار الظلام إذا انتحت يهماء هوجل هدى الهوجل العسيف، وهذا البيت بداية حقيقية لوصف واقع حياته في الصعلة، وما يتعرض له من مخاطر، وما يلزمه مقاومة هذه المخاطر، وأول المخاطر احتمال أن يضل في الصحراء التي لا حدود لها ولا معالم فيها وخاصة في الظلام الذي يزاوئ فيه تشاطفه في قطع الطريق وغاراته على أعدائه. فيقول إنه واثق من خبرته بالصحراء واعتدائه حتى في ظلامها، بينما يحار آخرون في هذه القلوات التي لا معالم فيها. ثم يأخذ في الآيات التالية في وصف حياته هذه ومشاهد منها وأنواع مما يقاسيه ويعانيه ويتغلب عليه.

إِذَا الْأَمْعَزُ الصَّوَّانُ لَاقَى مَنَاسِمِي
تَطَايَرَ مِنْهُ قَادِحٌ وَمُفَلَّلٌ ٢٠
أَدِيمٌ مِطَالُ الْجُوعِ حَتَّى أُمَيْتِهِ
وَأَضْرَبُ عَنْهُ الذَّكْرَ صَفْحًا فَأَذْهَلُ ٢١
وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الْأَرْضِ كَيْلًا يَرَى لَهُ
عَلَى مِنَ الطَّوْلِ امْرَأٌ مُتَطَوَّلٌ ٢٢

(٢٠) الأمعز: المكان الصلب الكثير الحصى، والصوان الحجارة المسننة، والنسم خف البعير، شبه قدميه بأخفاف الإبل. والقادح الذي تخرج من قدحه النار، والأمعز الصوان يعني المكان الذي فيه الصوان، والمفلل: المتكسر، والمعنى اتنى حين أهدو تنطائر الحجارة الصغيرة من حول قدمي ويضرب بعضها في حجارة أخرى فينتاير منها شرر نار وتتكسر، ويلاحظ أنه جعل قدميه لا تلاقى الصوان وإنما تلاقى المكان نفسه وهو الأمعز مبالغة في أن سرعة جريه تجعل الأمساكن لا قيمة لاتساعها فكان قدميه تلاقى هذا الوادي مثلاً هذه اللحظة ثم الوادي الآخر بعد ذلك وكان كل خطوة في واد، ويلاحظ أيضاً أنه لم يتحدث عن إثبات سرعته في العدو من حيث المبدأ لأنه أمر معروف ومسلم به، وإنما تحدث عن آثار سرعته في العدو.

(٢١) أديم: من الداومة وهي الاستمرار، والمطال يكسر الميم: المماطلة، وأضربت عن كذا صفحاً: أعرضت عنه، وذهل عن الشيء: نسيه. وفي هذا البيت يتحدث عن صورة أخرى من متاعب حياة الصعلكة، وهي التعرض كثيراً للجوع الشديد ويبين طريقته في مغالبة الجوع، وهي أنه يتناساه ويتجاهله ويماطله حتى يئس الجوع فيذهب عنه وكأنه غير جائع وبهذا يكون الجوع كأنه مات؛ ففي الشطر الأول يتحدث عن انصراف الجوع عنه، وفي الشطر الثاني يتحدث عن انصرافه هو على الجوع حتى ينساه. ومثل هذا التصوير واضح الدلالة على الصدق في التعبير عن واقع يعانيه صاحبه.

(٢٢) الطول: المن، والمتطول: النعمة التي يمن بها صاحبها على غيره، والمعنى أنه يفضل أن يستف تراب الأرض على أن يمد أحد إليه يده يفضل أو نعمة يمن بها عليه، وهو =

وَكُلُوا اجْتَنِبُوا الدَّامَ لَمْ يُلَفَّ مَشْرَبٌ
يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَى وَمَا كُلُّ ٢٣
وَلَكِنْ نَفْسًا مُرَّةً لَا تُقِيمُ بِي
عَلَى الدَّامِ إِلَّا رَيْثَمًا أَتَحَوَّلُ ٢٤
وَأَطْوَى عَلَى الْخَمَصِ الْخَوَايَا كَمَا انْطَوَتْ
خُيُوطَةُ مَارِي تَغَارُ وَتُقْتَلُ ٢٥

= مرتبط بالبيت السابق حيث تحدث عن الجوع ومغاليته إياه حتى يتنصر هو على الجوع فينساه، وكأنه يقول: وعلى فرض أنني لم أستطع مقاومة الجوع واضطرت إلى أن أكل شيئاً فإني أكل من تراب الأرض ولا أقبل شيئاً فيه مذلة لي أو منة لأحد على.
(٢٣) الدَّامُ والذم: العيب الذي يلزم به، ويلقى: يوجد، والمعنى لولا تجنبي العيب وكراهيتي له لاستطعت من طرق غير كريمة أن أحصل على كل ما يعاش به من مأكّل ومشرب، وهذا أيضاً من تكملة المعنى السابق، فبعد أن ذكر الصور المؤلمة التي يتعرض لها في الجوع أراد أن ينفي عن نفسه أن يظن أحداً به العجز قائلاً إن تعفّفه عن العيب هو الذي يجعله في هذه الحال، ولولا ذلك لكان من اليسير عليه أن يحصل على كل ما يريد.
(٢٤) مرة: أي صعبة أليمة يعنى نفسه، الدَّامُ: العيب كما سبق، الريثم: الوقت اليسير. وهو استدراك أيضاً فبعد أن ذكر في البيت السابق أنه يمكن بطرق غير كريمة أن يحصل على ما يشاء لو قبلت نفسه ذلك استدرك قائلاً: ولكن نفسي لا تقبل العيب قط، وما إن تراه أو تحس به حتى تتحول عنه بسرعة.

(٢٥) الخمص يفتح الخاء: الجوع، الخوايا جمع خوية وهي الأمعاء. والخيوطة: الخيوط والهيا لتأنيث بمعنى كثرة من الخيوط وهي ما يخاط به، وماري: قيل اسم لقاتل الحبال وقيل اسم رجل مشهور بصناعة الحبال وقتلها، وتغار: يحكم قتلها، وحبل مغار: محكم القتل.
والمعنى أطوى أسمعني على الجوع وهي محاولة فتصبح هذه الأمعاء خللها من الطعام يابسة، ويتطوى بعضها على بعض كأنها حبال مفتولة بدقة وإتقان في القتل.

وَأَغْدُو عَلَى الْقُوتِ الزَّهِيدِ كَمَا غَدَا
 أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ^{٢٦}
 غَدَا طَاوِيًا يُعَارِضُ الرِّيحَ هَافِيًا
 يَخُوتُ بِأَذْنَابِ الشَّعَابِ وَيَعْسِلُ^{٢٧}
 فَلَمَّا لَوَاهُ الْقُوتُ مِنْ حَيْثُ أَمَّهُ
 دَعَا فَأَجَابَتْهُ نِظَائِرُ نُحْلُ^{٢٨}

(٢٦) أغدو أقصى فترة الغداء وهي أول النهار. القوت: الطعام، الزهيد: القليل، والأول: صفة للذئب القليل اللحم في فخذه وعجزه. وتهاده: تتناقله وتتداوله، والتنايف: جمع تنوفة وهي المفازة في الصحراء، يعني كلما خرج من مفازة دخل أخرى، والأطحل: لذى لونه بين الغيرة والبياض. وكل هذا وصف لحال ذئب؛ يشبه الشنفرى نفسه في سياق حديثه عن الجوع الشديد وقلة الطعام يذئب جائع لا يجد طعاماً، والجوع واضح عليه في تحول جسمه وخلوه من اللحم، يظل ينتقل بين القلوات بحثاً عن طعام، ولون هذا الذئب يميل إلى الغيرة، وليس وجه الشبه بينهما هنا شدة البحث عن الطعام وإنما اتفاق حالهما في ندرة الطعام وصعوبة الحصول عليه.

(٢٧) الطاوى الجائع، يعارض الريح يستقبلها وحينئذ يكون عكس اتجاهها، وهذا الوضع يجعل الذئب يشم رائحة الفريسة فيتبعها، بينما لا تمكن من شم رائحته لأنه عكس الريح، وهذه صورة من دقة الصعاليك في الخيرة بالبيئة الوحشية. وهافياً مسرعاً، ويخوت: ينقض يقال خات الصفر إذا انقض على الفريسة، والأذنان يعني الأطراف، والشعاب بكسر الشين جمع شعب يكسرها وهو الطريق في الجبل، ويعسل: يمشى مشياً سريعاً. والبيت كله وصف لحال الذئب الذي ذكره في البيت السابق يقول إن هذا الذئب أصبح جائعاً فخرج مستقبلاً الريح باحثاً عن فريسة، ينقض مرة على صيد، ويسرع مرة في مطاردة صيد وليس في كل مرة يصطاده، وإنما هذه حاله في بحثه عن طعامه مشتتاً بين الشعاب والوديان.

(٢٨) لواه: مقله وامتنع عليه، أمه بفتح الهمزة: قصده، والنظائر: الأشياء التي يماثل بعضها =

مُهَلْهَلَةٌ شَيْبُ الْوُجُوهِ كَأَنَّهَا

قِدَاحٌ بِكَفَى يَاسِرٍ تَتَقَلَّقُلُ^{٢٩}

أَوْ الْخَشْرَمُ الْمَبْعُوثُ حَثَّحَتْ دَبْرَهُ

مَحَايِضُ أَرْدَاهُنَّ سَامٌ مُعْسَلٌ^{٣٠}

بعضاً ومفرده قياساً نظيره ولكن الشاعر يقصد النظر بالتذكير، ونحل جمع تاحل وهو الهزيل الضامر، وفعله نحل يفتح الحاء أو كسرهما. وهو متابعة لوصف الذئب الجائع الباحث عن طعامه. يقول هنا إن هذا الذئب بعد أن تعب من البحث عن الطعام ولم يجد في الأماكن التي توقع وجوده فيها، لم يجد غير أن يستغيث ويصرخ وقد أجابته عشرته من الذئاب، فإذا حالها جميعاً كحالها جائعة وضامرة هزيلة من الجوع المتكرر وشبه الدائم. (٢٩) مهلهلة: قليلة اللحم وهو وصف لنظائر في البيت السابق، وشيب جمع أشتب وشيباء والقِدَاح جمع قِدَح يَكسر القاف وهو السهم قبل بره وتركيب تصله، والقِدَاح أداة القمار عند العرب، والياسر المقامر الذي يضرب القِدَاح. وتَقَلَّقُل: تتحرك وتضطرب. والبيت متابعة أيضاً للمعنى السابق وهو وصف الذئاب الجائعة الباحثة عن الطعام. فيصفها هنا بالتحول من آثار الجوع ويساوس شعور الوجوه وهو وصف خلقي أي أنه صورة لون من ألوان وجوه الذئاب، ثم يصف هذه الذئاب في عدم انتظام حركتها وفي اضطرابها بسهام المقامرة التي كانت شائعة آنذاك في المجتمع. والأيات الأربعة السابقة تمثل صورة أدبية كأنها لوحة مجسمة، تبدو فيها صورة الذئب الجائع الباحث عن طعامه في منظر وبيئة محددة التصوير بصفات معينة، وحتى المناخ يبدو في الصورة مثلاً في رياح شديدة تفرش السكون على الأحياء ولكن شدة الجوع فرضت على هذا الذئب وعلى نظائره التي تظهر في الصورة أيضاً أن يتحملوا هذا المناخ.

(٣٠) أو: للعطف، والعطف إما على الذئب الأول في البيت الذي سبق قبل ثلاثة أبيات. والمعنى: أغدو على القوات الزهيد كما غدا أول أو كالحشرم المبعوث، والحشرم: رئيس النحل، وحيث أن يصح الحديث التالي عن النحل صورة مستقلة يشبه الشنفرى جانباً من حياته بها، وتكون الأبيات التالية عن النحل وأسلوب حياته، وقد اخترنا هذا المعنى في بسطنا للصورة التالية عن النحل في بحث سابق، وهذا أحد احتمالي لعطف، وأما الاحتمال الثاني وقد أخذ به الزمخشري فهو أن الحشرم معطوف على قِدَاح في البيت =

مُهَرَّتْهُ فُؤُهُ كَأَنَّ شُدُوقَهَا

شُقُوقُ الْعَصِي كَالْحَاتٍ وَبَسَلٌ^{٣١}

فَضَجَّ وَضَجَّتْ بِالْبَرَّاحِ كَأَنَّهَا

وَيَّاهُ نُوحٌ فَوْقَ عَلِيَاءٍ تُكَلُّ^{٣٢}

= السابق وهو غير قوى لغةً لمعطفه معرفة على تكررة، ويرتب على هذا المعنى أن تكون الأبيات التالية للذئاب وليس للنحل، ولا مانع من هذا، بل ستختار هذا المعنى هنا زيادة في التماس ما توحى به اللامية من صور أدبية متعددة ومتنوعة. والحشرم رئيس النحل وهو ما يعرف الآن بملكة النحل. والجموح والنبعث في السير: المسرع، وحشمت حض وقاد، والغير: جماعة النحل، والحاييض عيدان جامع العسل، والأنسب للمعنى أن يكون المراد بها عيدان خلایا النحل التي تحوى العسل، وأرداهن: أهلكهن وحطمهن، سام: مرتفع عال، ومعلل: بكسر السين المشددة طالب العسل وجامعه، والمعنى على الاحتمال الثاني الذي اخترناه هنا أن الذئاب في البيت السابق تشبه السهام في يد القامسر أو تشبه رئيس النحل مع نحله، وقد عمد أحد طالبي العسل إلى خلایاهن فحطمها في جسمه للعسل، فاضطرب النحل لهذا الموقف الذي يجعله بدون مأوى لأن بيوته هدمت، وبدون طعام لأن العسل طعامه المدخر في بعض أوقات السنة.

(٣١) المهترئة: يفتح الراء المشددة: الواسعة الأشفاق. وفوه: مفتوحة القم وهي جمع مفردة أفوه للمذكر وفوهاة للمؤنث، والشدوق جمع شديق وهو جانب الفم، كالحات مكشرة في عبوس، وبسل: كربة المنظر، ومنه مقاتل بأسل أي يكره الأعداء لقاءه. والشاعر بهذا المعنى يعود إلى وصف الذئاب التي تجمعت حول ذلك الذئب الجائع حين دعاه، فيصفها بأنها فائمة أقواها، وأن شدوقها واسعة كأنها الشقوق في العص، منظر وجوه هذه الذئاب كتيب عابس كربه. ويذكر المبرد أن الشفري تأثر في هذا البيت ببيت لعلمقة الفحل المعاصر لامرئ القيس.

(٣٢) ضج وضجت: صاح الذئب وصاحت معه الذئاب المتجمعة. والبراح: الأرض القضاء الواسعة. كأنها: أي الذئاب. النوح: النساء التوايح. والعلياء المكان العالي المرتفع. والتكل جمع النساء اللاتي فسدن أزواجهن أو أولادهن. والمعنى أن هذا الذئب عوى فجأوته الذئاب من حوله بعواء مماثل، فأصبح هو والذئاب كأنهم في مأتم نوح فيه نساء تكل فوق مرتفع من الأرض.

وَأَغْضَى وَأَغْضَتْ وَأَتَسَى وَأَتَسَتْ بِهِ
مَرَامِيلُ عَزَاهَا وَعَزَّتْهُ مُرْمِلٌ^{٣٣}
شَكَا وَشَكَتْ ثُمَّ ارْعَوَى بَعْدُ وَارْعَوَتْ
وَلِلصَّبْرِ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشُّكْوُ أَجْمَلٌ^{٣٤}
وَفَاءَ وَفَاءَتْ بِأَدْرَاتٍ وَكُلُّهَا
عَلَى نَكْظٍ مِمَّا يَكَاتِمُ مُجْمِلٌ^{٣٥}

(٣٣) الإغضاء تقريب الجفون بعضها من بعض خفض البصر. والمراد أن الذئب كف عن العواء وكسفت الذئاب أيضا. والمراد من اتسى واتست بفتح التاء المشددة: أن كلاً منهما تأسى واقتدى بحال الآخر لأنهما متفقان في الحال. ومراميل مفردة مرميل، وهو الذي نقد زاده.

والمعنى أنهما أي الذئب والذئاب وجدا حالهما متفقين حيث جمعهما ألم الجوع وكآبة اليأس، ولم يفدهما العواء والنواح شيئا، فأتخذ كلاهما يعزى الآخر ويتأسى بحاله في التجلد على الجوع واليأس.

(٣٤) شكَا وشَكَت بمعنى أظهر كلاهما حاله من الجوع والألم. وارعوى: كف ورجع. بعد مسببة على اليأس. والشطر الأول معناه أنهما أظهرتا حالهما أولا بالعواء والألم والضجيج، ولكنهما لم يجدا من ذلك نفعا فكفا عن ذلك، ولجأ كلاهما إلى الصبر. والشطر الثاني حكمة مضمونها أن الشكوى ما دامت لا جدوى منها فالصبر خير منها وأجمل.

(٣٥) فاء: رجع، يادرات سرعات ويادره بكذا أسرع به إليه. والنكظ: الضيق والشدة. يكاتم: يكتم ما في نفسه. ومجمل: يصنع الجمل. والبيت يتابع وصف الذئب وجماعة الذئاب، فيقول إنهن بعد يأسهن من الحصول على طعام واضطراهن إلى الصبر والتحمل، رجعن جميعا يسرعن كل إلى مساواه، ولكنهن جميعا يحملن المرارة والألم من الجوع والجهد واليأس، ومع ذلك يكتم كل منهن ما يعانينه وهذا من الحكمة وحسن الصنيع. وبهذا البيت تنتهي هذه الصورة الأدبية الرائعة من واقع البيئة لشهد الذئاب وأسلوب حياتها، موازنا بين نفسه وبينها.

وَتَشْرَبُ أَسَارَى الْقَطَا الْكَدْرُ بَعْدَمَا

سَرَتْ قَرَبًا أَحْنَاؤُهَا تَتَصَلَّصُ^{٣٦}

هَمَمْتُ وَهَمَّتْ وَابْتَدَرْنَا وَأَسْدَلْتُ

وَشَمَّرَ مِنِّي فَارِطٌ مُتَمَهِّلٌ^{٣٧}

فَوَلَّيْتُ عَنْهَا وَهِيَ تَكْبُو لِعَقْرِه

يُبَاشِرُهُ مِنْهَا دُقُونٌ وَحَوْصَلٌ^{٣٨}

(٣٦) الأسار: جمع سؤر وهو بقية الشراب. والقطا: نوع من الطير مشهور بالسرعة، الكدر: جمع مذكّره أكدر، ومؤنثه كدراء، وهو وصف للون القطا، والقرب بفتح القاف والراء: السير إلى الماء وبينك وبينه مسير ليلة. والاحتاء: جمع حنو وهو الجانب. وتتصلص: يصدر منها صوت معين هو صوت العطش. والحاجة الشديدة إلى الماء. والمعنى: إنى أسرع من القطا، فحين يساقى القطا إلى الماء أسبقه إلى الماء فأشرب وأرتوى قبل وصول القطا، حتى إنه حين يجيء لا يجد إلا بقية قليلة بعد شراي، هذا رغم سرعة القطا، ورغم أن القطا من شدة العطش أحناؤه تتصلصص وهذا يدعوها إلى زيادة السرعة إلى الماء.

(٣٧) التاء في همت للقطا، والمعنى: استعد كلانا أنا والقطا للسباق إلى الماء. وابتدرونا: سابق كل منا الآخر. وأسدلت بمعنى القطا، والإسدال إرخاء الثوب، والمراد إرخاء القطا أجنحتها كناية عن التعب وضعف السرعة. شمر: رفع الثوب، والفارط: المتقدم. ولفظ شمر يقابل به الإسدال من القطا، فيقول بينما ظهر التعب على القطا فأرخى أجنحته إلى أسفل، كنت أنا في قمة نشاطي فشمرت ثوبي إلى أعلا، ثم يصف نفسه بأنه أصبح فارطا أي متقدما على القطا في السباق، ويزيد في وصفه هذا أنه مع هذا التقدم لم يبدل كل جهده في العدو بل كان يعدو متمسكاً متأنياً لأنه واثق من سبق ومن أن منافسه دونه بكثير فلا يحتاج إلى بذل كل جهده.

(٣٨) تكبو: تسقط من الضعف بعد جهد الطيران ليلة كاملة، والعقر بفتح العين وسكون القاف مكان الساقى من الخوض، والدقون جمع كثرة للذقن وجمع القلة أذقان. وحوصل جمع حوصلة.

كَأَنَّ وَغَاهاَ حَجَرَتَيْهِ وَحَوْلَهُ
أَضَامِيمٌ مِنْ سَفَرِ الْقَبَائِلِ نُزِّلُ ٣٩
تَوَافَيْنَ مِنْ شَتَّى إِلَيْهِ فَضَمَّهَا
كَمَا ضَمَّ أَزْوَادَ الْأَصَارِيمِ مَنَهْلُ ٤٠
فَعَبَّتْ غَشَاشاً ثُمَّ مَرَّتْ كَأَنَّهَا
مَعَ الصُّبْحِ رَكْبٌ مِنْ أُحَاظَةٍ مُجْفِلُ ٤١

- والمعنى أنى سبقت القطا بزمن غير قصير حتى أتى شربت وانصرفت قبل وصول القطا الذى جاء مجهدا يتساقط حول الخوض ملتصبا الماء بدقونه وحواسله.

(٣٩) وغاها: أصواتها ووغى الحرب أصواتها، وحجراته يفتح الحاء: ناحيته الضمير يعود على الماء موضوع حديث السياق. والأضاميم جمع إضمامة وهم القوم ينضم بعضهم إلى بعض فى السفر خاصة، والسفر يفتح السين: المسافرون جمع مثل صاحب وصحب، ونزل: جمع نازل يريد المسافر الذى يحط رحله وينزل فى مكان. والمعنى أن أصوات القطا حول الماء كثيرة متزاحمة حتى كأنها جواتب للماء وحواسز له، وهذه الجلبة التى يحدتها القطا فى تزاحمه وأصواته حول الماء كأنها جماعات من مسافرى القبائل التى ترتحل بصحبها من الماشية والرجال والنساء والأطفال فتحدث جلبة وأصواتاً مختلطة متنوعة حين تنزل فى مكان. فالتشبيه فى البيت منصّب على وصف أصوات القطا.

(٤٠) توافين: توافدن وتجمعن معنى القطا، من شتى: من أماكن متفرقة مختلفة، ضمها: جمعها يعنى الماء، والأزواد: جمع ذود وهو الجماعة من الإبل بين ثلاثة وعشرة، والأصاريم جمع صرمة بكسر الصاد وهى العدد من الإبل نحو الثلاثين، والمنهل الماء الذى ينهل منه. يشبه تكاثر القطا وتجمعه حول الماء بأعداد كثيرة من الإبل ضمها وجمعها منهل من الماء فتجمعت حوله وتزاحمت عليه جماعات. والبيت متباعدة لصورة السقطا فى الأبيات السابقة.

(٤١) العَبَّ: شرب الماء من غير مص يدقسه فى الحلق دفقا دون تدرج. وفى الحديث الشريف «مُصُواْ الماءَ مَصّاً وَلَا تَعْبُوهُ عِبَاءً وَغَشَاشاً أَيْ عَلَى عَجَلَةٍ، وَالرَّكْبُ: خَاصٌّ بِرُكْبَانِ الْإِبِلِ» =

وَأَلَفُ وَجْهَ الْأَرْضِ عِنْدَ افْتِرَاشِهَا
بَاهْدًا تُنْبِيهِ سَنَاسِنُ قُحْلٌ^{٤٢}
وَأَعْدِلُ مَنَحُوضًا كَأَنَّ فُصُوصَهُ
كَعَابٍ دَحَاهَا لَاعِبٌ فِيهِ مِثْلُ^{٤٣}

وأحاطة. قبيلة من اليمن أو فرع من الأزد، والرواة غير متيقنين من المراد به. وميجفل: متزعج وعادة المتزعج الإسراع في الهروب من مصدر الإزعاج، ولذلك استعمله في الدلالة على السرعة.

والمعنى أن هذه القطا لشدة عطشها عبت من الماء عيباً في إسراع وعجلة ثم تفرقت بسرعة أيضاً، وهذا التشبيه يدعو إلى التفكير في معنى ركب أحاطة الميجفل حيث يبدو أنه ليس المراد به ركباً من الناس وإنما جماعة من الحيوانات، كما أشارت بعض الروايات إلى أن المراد به بقر أحاطة باليمن، وهذا البقر ميجفل ومتزعج لأي سبب من أسباب النزاع الحيوان كأن يفاجأ بخطر أو حيوان مفترس كتعبير القرآن عن نفور الخمس وفرارها من أسد: ﴿كَانَ مِنْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَفِرَّةٌ، فَفَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ فهو يشبه انقباض القطا عن منهل الماء بعد الشرب وإسراعه في الطيران متفرقاً بقطع من الحيوان فاجأه خطر فاجفل وانطلق مسرعاً هارباً.

(٤٢) أَلَفٌ: من الإلف وهو التسود، والأهدأ: الشديد الثبات مشتق من الهدوء، ثنيبه: ترفعه وتبعده نسيأ عنه أي بعد، والسنانين: ما يظهر من قفار الظهر وهي قفار العمود الفقري، وقحل: جافة يابسة. يتحدث عن ظهره وأضلاعه، والمعنى: ألفت افتراش الأرض بظهر يابس العظام حتى إن رهوس هذه العظام هي التي تستقبل وجه الأرض فتكون حائلاً دون وصول الظهر والجسم إلى الأرض ويظل الجسم مرتفعاً عن الأرض بسبب هذه القفار، والمراد خلق جسمه من اللحم.

(٤٣) أَعْدِلُ: أتوسد ذراعاً، أو أضع تحت رأسي ذراعاً عند النوم. والمنحوس: الذي ذهب لحمه من الفعل نحس بالبناء للمجهول، وفصوصه: مفاصل عظامه، يعني عظام ذراعته، والكعاب ما بين الأنيبين من القصب ولكنه يريد نوعاً كان يعد للعب به. دحاهما يعني بسطها وسواها وهي الكعوب، ومثل: جمع مائل ومائلة يعني متصبية. والمراد من البيت كله وصف ذراعته بأنه يابس خال من اللحم لا يبدو فيه إلا مفاصل =

فَإِنْ تَبْتَئِسَ بِالشَّنْفَرَى أَمْ قَسْطَلْ
لَمَّا اغْتَبَطَتْ بِالشَّنْفَرَى قَبْلُ أَطُولُ^{٤٤}
طَرِيدُ جِنَايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ
عَقِيرَتُهُ لَأَيَّهَا حُمَّ أَوَّلُ^{٤٥}
تَنَامُ إِذَا مَا نَامَ يَقْظَى عُيُونُهَا
حِثَّائًا إِلَى مَكْرُوهِهِ تَتَغَلْغَلُ^{٤٦}

= صلبة جافة كأنها كعوب من حديد، وهذا ينعكس على جسمه كله من حيث التحول وخلوه من اللحم، وهذا البيت والبيت السابق له وصف لحاله في النوم، فهو يفتش الأرض بجسم ليس فيه إلا عظام وفقرار، ويتوسد ذراعاً كأنه قطع صلبة جافة من حديد يتركب بعضها فوق بعض.

(٤٤) تبتئس: تحزن، والقسطل: الغبار، وأم قسطل: اسم للحرب لأنها تشير الغبار، لما: طالما. واغتبطت: فرحت. والمعنى إذا حزنت الحرب اليوم لفراق الشنفرى إياها فطالما فرحت قبل ذلك بمزاولة وإثارة إياها، والغالب أنه يريد فترة ما قبل حياة الصعلكة، فمن الطبيعي أنه كان يشارك في الحروب التي تنور بين موطنه الذي يعيش فيه والقبائل الأخرى، ولكن رحيله إلى حياة الصعلكة يصرفه عن هذه الحروب القليلة إلى الصراع الخاص به وبالصعاليك، فهو يعزى الحرب يرحيله عنها.

(٤٥) طريد: مطرود والمراد يطارده غيسره، والجنايات يعنى بها غاراته وأعماله العدوانية في الصعلكة، تياسرن: اقتسمن لحمه بضرب السهام والقرعة، وعقيرته: لحمه، وحُم: نزل وتحقق، ومنه حم القضاء نزل بصاحبه، والأصل حمت لأنه عائد على الجنايات ولكنه يعنى السهام التي اقترعوا بها لاقتسام لحمه في تخيله، فعقيرته أى لحمه تكون لأول سهم يفوز في الاقتراع، والمعنى أنه مطارّد ومطالب بجنايات كثيرة جناها، وأصحاب الجنايات يتنافسون في الوصول إليه للانتقام منه، فهو مقضى عليه من الذى يتمكن منه أولاً.

(٤٦) تنام: يعنى الجنايات السابقة والمراد أصحاب هذه الجنايات، وحثائًا: سراعاً، وتتغلغل تنوغل وتتعمق. والمعنى أن أصحاب الجنايات حريصون على التمكن منى، ولذلك فهم=

وَالْفُ هُمُومٌ مَا تَزَالُ تَعُودُهُ
عِيَادًا كَحُمَى الرَّبْعِ أَوْ هِيَ أَثْقَلُ ٤٧
إِذَا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُهَا ثُمَّ إِنَّهَا
تَثُوبُ فَتَأْتِي مِنْ تَحِيَّتٍ وَمِنْ عَلٍ ٤٨
فَمَا تَرِنِي يَا بِنْتَ الرَّمْلِ ضَاحِيًا
عَلَى رَقَّةٍ أَحْفَى وَلَا أَتَعَلَّ ٤٩

= في غاية البساطة والتبرص بي، حتى إنهم إذا قاموا فإن عيونهم تظل يقطر باحثة عن ومترصدة لي، وهي تقسم أعمق الشر وأشد الكيد، وفي هذا مبالغة تبين شدة البحث عنه وطلبه.

(٤٧) الإلف بكسر الهمزة: التعود بمعنى أنه تعود على الهموم، وحُمى الربيع: بكسر الراء المشددة نوع من الحمى يأخذ صاحبه يوماً ويتركه يومين، وليس المراد تحديد أيام بذاتها أعني ليس المراد تحديد يوم أو يومين بالذات، ولكن المراد أصل المعنى، وهو أن الهموم معتادة عليه، وأنها دائمة التردد والانصراف في نظام يكاد يكون ثابتاً كأنه الحمى التي تتردد على صاحبها في نظام ثابت. وعلم النفس يؤكد صحة هذا المعنى بالنسبة للمصابين بالقلق النفسى أو الضيق المعبر عنه بالهموم.

(٤٨) وردت: حضرت بمعنى الهموم، وأصدرتها: صرفتها وطردها، وتثوب: ترجع، ونحيت: تصغير تحت، وعل: من العلو ويستعمل يفتح اللام وكسرهما وضمهما وكلها بمعنى من مكان عال.

والمعنى: أتى في صراع دائم مع الهموم، كلما صرفتها عادت، ثم أصرقها فتعود وهكذا. ولكن الألفاظ توحى بقرب الهموم منه وإحاطتها به، ولذلك صغر لفظ تحت ليوحى بملاصقتها إياه، وكذلك أطلق لفظ العلو ليشمل كل الأماكن المرتفعة عما تحته.

(٤٩) ابنة الرمل: الحية، ضاحياً: بارزاً يقال ضحيت للشمس بفتح الحاء: تعرضت لها وهو المراد. على رقعة: معنى رقعة الحال وهي الفقر، أحفى: من الخفاء وهو عدم ليس التعل. والمعنى يتخيل امرأة يخاطبها كمعادة الشعراء وخاصة في الشعر القديم، ومضمون خطابه=

فَإِنِّي لَمَوْلى الصَّبْرِ أَجْتَابُ بَزَهُ
عَلَى مِثْلِ قَلْبِ السَّمْعِ وَالْحَزْمِ أَنْعَلُ^{٥٠}
وَأُعْدِمُ أَخْيَانًا وَأَغْنَى وَإِنَّمَا
يَنَالُ الْغِنَى ذُو الْبُعْدَةِ الْمُتَبَذِّلُ^{٥١}

= لها أنه يبدو عليه الفقر والحرمان من عدة وجوه صرح ببعضها تصريحاً، ولمح بالأخرى تلميحاً؛ فمن التلميح أنه يكاد يكون عارى الجسد وكأنه حية تتحرك بجملدها المكشوف دون ساتر أو شعر كأغلب الحيوان، ومنها أنه لا يملك ما يحجب به جسمه من الشمس كما يفعل الناس بما يلتحفون به من أكسية وأغطية. ومن التصريح بقره أنه مضطر إلى أن يعيش حافياً دون ثعل، وتكملة المعنى فى البيت التالى، ولكنه يواصل عرض متاعب حياته وما يقاسيه مما لا يحسه إلا من يعيش حياته هذه الرهيبة، فيبعد أن شبه نفسه بالذئب الجائع فى طلب الطعام، تحدث عما يعانيه فى البحث عن الماء مزاحماً القطا، ثم تحدث عن تحول جسمه وبروز عظامه، ثم عن مطاردة أصحاب الجنايات له، ثم عن همومه التى تأبى أن تفارقه.

(٥٠) مولى الصبر: صاحبه ومالكه مبالغة فى التمكن من الصبر، أجتاب: ألبس، والبز: يريد الجيد من ثياب الصبر، بمعنى أنه يملك أحسن ما يتجلى به الناس من الصبر، والسمع: بكسر السين المشددة ولد الذئب من الضيع، ومثل قلبه: يعنى شجاعته، والحزم: التصرف فى قوة وثقة بالنفس، أنعل: بمعنى أتخذة نعلأ يريد الحزم وهو مقعول به مقدم. والبيت تكملة لمعنى البيت السابق، والمعنى إذا كان مظهرى من العرى والحفاة يوحى بالفقر والحاجة، فإن جوهرى عامر غنى بالفضائل التى أخذ يعدد بعضاً منها، وأولها فى هذا البيت أنه صبور متمكن من قياد نفسه والتحكم فيها، مع قلب كأنه قلب السمع، حتى لا يظن أحد أن الصبر ضعف، وفوق هذا فإن تمكنه من الحزم أشد، حتى كأنه يضع الحزم فى قدميه نعلأ.

(٥١) العدم: بفتح العين والدال أو ضم العين وسكون الدال: الفقر، والبعدة: بضم الباء وكسرها اسم للبعد بمعنى بعد الهمة، ولكن المراد سعة الآمال وكثرة المطامع والإبعاد فى السعى وراء المال، والمتبذل: الذى لا يعضون نفسه ولا يهتم يسترها، فيلجأ إلى الإسفاف والعيب.

فَلَا جَزَعٌ مِنْ خَلَّةٍ مُتَكَشِّفٍ
وَلَا مَرِحٌ تَحْتَ الْغِنَى أَتَخِيلُ^{٥٢}
وَلَا تَزْدَهِي الْأَجْهَالُ حِلْمِي وَلَا أَرَى
سَوْوُلًا بِأَعْقَابِ الْأَقَاوِيلِ أُنْمِلُ^{٥٣}
وَلَيْلَةً نَحْسٍ يَصْطَلِي الْقَوْسَ رَبُّهَا
وَأَقْطَعُهُ اللَّاتِي بِهَا يَتَبَلَّ^{٥٤}

= والمعنى أنه لا يضع همه كله في الغنى وجمع المال؛ فإنه لا يبلغ ذلك إلا من يقصر نفسه على هذه الغاية التي تبعده بصاحبها في كل مجال والتي تدفعه إلى كل أنواع السلوك حتى المبتذل المكشوف، أما أنا فالفقر والغنى كلاهما عندي أمر طارئ، غير ذي شأن كبير. (٥٢) الجزع: عدم الصبر عند المكروه، والخلة بفتح الخاء الفقر والحاجة، والمتكشف الذي يظهر فقره وحاجته للناس، والمرح شدة الفرح، والتخيل: من الخيلاء وهي التكبر والإعجاب بالنفس. والمعنى أن الفقر والغنى كلاهما ليس له سلطان على أو تأثير كبير في نفسي، فلا الفقر يجعلني أبتس وأظهر ضعفي، ولا الغنى يجعلني أفرح وأختال، وهذا الثبات يدعو إليه القرآن الكريم. فمن ذلك في سورة الحديد قوله تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

(٥٣) تزدهي: تستخف، الأجهال: جمع جهل يريد الحق والسفاهة، وسؤولاً: ملحاً في سؤال الناس وطلب أسرارهم، وأعقاب: أواخر. وأتمل بضم الهمزة وكسر الميم أنقل الأحاديث بقصد التيسر يقال تم فلان وتمل بمعنى كان تماماً. والمعنى أنه حلیم لا يستخفه الجاهل والحمقى، وهو يتعفف عن سؤال الناس، وليس المراد سؤال ما في أيديهم، وإنما المراد الأسرار والأحاديث، فهو لا يتبع أواخر الأقاويل والأحاديث لينقلها إلى من تعينهم بقصد التيسر وإثارة الفتن، فهذا ليس من خلقه.

(٥٤) النحس: من معاليه اليرد وهو المراد هنا، واصطلاح الناز: الاستدفاء بها، ويصطلي القوس: يعنى يوقدها ليستدفى. ينارها من شدة اليرد، وربها: صاحبها. والأقطع: جمع قطع يكسر القاف وهو نصل السهم. ويتبل: يتخذ منها النبل للرماية.

دَعَسْتُ عَلَى غَطْشٍ وَبَغْشٍ وَصُحْبَتِي
سُعَارٌ وَإِرْزِيزٌ وَوَجَرٌ وَأَفْكَلٌ^{٥٥}
فَأَيْمْتُ نَسْوَانًا وَأَيْتَمْتُ إِلْدَةً
وَعُدْتُ كَمَا أَبْدَأْتُ وَاللَّيْلُ أَلِيلٌ^{٥٦}

- والمعنى رب ليلة شديدة البرد تبلغ من بردها أن يحطم صاحب القوس قوسه ونصال سهامه التي يرمى بها ويجازف بفقد أهم ما يحتاج إليه ليستدفي به. وتكملة المعنى في البيت التالي.

(٥٥) دعست: مشيت، والغطش: الظلمة، والبغش المطر الخفيف، وصحبتى: أصحابى، السعار: بضم السين: شدة الجوع وأصله حر النار فاستعير لشدة الجوع، والإرزيز: البرد الشديد، والوجر: الخوف، والأفكل: الرعدة والارتعاش، ودعست جواب رب المقدرة في البيت السابق، والمعنى رب ليلة برد دعست فيها مع هذه الأحوال التي ذكرتها من الظلام والمطر، لا يصحبتى فيها وفي هذه الأحوال الرهيبة إلا أصحاب أشد رهبة وإيلاماً، وهى شدة الجوع الذى يشبه النار، والبرد الشديد والخوف والرعدة فى جسمى من هذه العوامل كلها.

(٥٦) الأيم: من لا زوج لها من النساء، وكذلك من لا زوج له من الرجال، وأيمت المرأة: جعلتها تفقد زوجها بمعنى أن يقتل زوجها، وأيتمت: جعلتهم يتامى بفقد الآباء، وإلدت: أولاد، وأبدأت: معناه بدأت، وأليل: شديد الظلام.

والبيت مرتبط أيضاً بما قبله، والمعنى أننى لا يمنعنى من تنفيذ عزمى شيء، فقد أمشى فى الليلة الشديدة الظلام والبرد على أرض موحلة من آثار المطر، وبى جوع شديد وخوف عميق حتى إن جسمى يرتعش من هذه الأسباب كلها، ومع ذلك لا يصدنى هذا عن الوصول إلى أهدافى وإغمارتى عليهم، فأحقق ما أريد، فأقتل رجالاً تصيح زوجاتهم أياهم وأولادهم يتامى، وأحقق ذلك كله فى وقت وجيز حتى إنى أعود و ما زال الظلام دامساً.

وَأَصْبَحَ عَنِّي بِالْغُمَيْصَاءِ جَالِسًا
فَرِيقَانِ: مَسْتُوْلٌ، وَآخَرُ يُسَالُ^{٥٧}
فَقَالُوا: لَقَدْ هَرَّتْ بَلِيلُ كِلَابُنَا
فَقُلْنَا: أَذْثَبُ عَسَّ أَمْ عَسَّ فُرْعُلُ^{٥٨}

(٥٧) الغميصاء: مكان بتجد، والجلس: يفتح الجيم اسم لبلاد نجد، وجالساً ليس المراد يها القعود وإنما المراد إتيان نجد ودخولها كما يقال أَنَّهُمْ: أَتَى تِهَامَةً وَأَسَامَ: أَتَى الشَّامَ والنجد: أتى نجدًا وكذلك جلس: أتى المجلس بالفتح وهو نجد. والبيت مرتبط بالآيات السابقة حيث يعبر فيه عن نتيجة غارته التي وصفها في الآيات الثلاثة السابقة فيقول إن غارته كانت في جوف الليل وكانت نتيجتها أنه عند الصباح أخذ الذين أغار عليهم يسأل بعضهم بعضًا وهم بتجد عن آثار غارته متعجبين من سرعتها الحافظة وآثارها الرهيبة التي تخففت عنها، وليس في هذا دليل على أن الشفري كانت حياته في نجد، فالآيات مجرد وصف لإحدى غاراته، وموطنه في فترة الصلابة كان فيما بين مكة والمدينة من جبال السراة، أما ذكر نجد في هذا البيت فيحتمل أنها غارة على أعدائه المقيمين في نجد ثم عاد إلى موطنه. ويكون قوله (عدت والليل آيل) مبالغة في سرعة عودته، ويحتمل أنها غارة على قافلة من باب قطع الطريق وكانت القافلة حينئذ في موطنه من السراة ثم واصلت سيرها حتى حطت رحالها في الغميصاء من نجد، وهناك أخذ أفرادها يتداولون وصف هذه الغارة التي أغارها عليهم الشفري بين سائل ومستول.

(٥٨) هرير الكلب: صوته أضعف من النباح، يعنى سمعنا صوتاً ضعيفاً من الكلاب. والعس: الطواف بالليل ومنه العسس وهم حراس الأمن بالليل، والقرعل بضم القاء والعين: ولد الضبع. والمعنى أن الذين أغار عليهم أصبحوا يصفون هذه الغارة مستعجبين يقول بعضهم لبعض: إتنا لم نسمع إلا صوتاً ضعيفاً من الكلاب فحسبنا أن الكلاب أحست بذئب أو قرعل فأصدرت هذا الصوت.

فَلَمْ تَكْ إِلَّا نَبْأَةٌ ثُمَّ هَوَّمتُ
فَقُلْنَا قَطَاةٌ رِيعَ أُمِّ رِيعٍ أَجْدَلُ^{٥٩}
فَإِنْ يَكُ مِنْ جِنٍّ لِأَبْرَحٍ طَارِقاً
وَإِنْ يَكُ إِنْساً مَا كَهَا الْإِنْسُ تَفْعَلُ^{٦٠}
وَيَوْمَ مِنَ الشَّعْرَى يَذُوبُ لُؤَابُهُ
أَقَاعِيهِ فِي رَمْضَائِهِ تَمْلَمَلُ^{٦١}

(٥٩) نبأة: صوت والمراد صوت صدر مرة واحدة ضعيفاً، هومت: نامت يعنى الكلاب، والقطاة: نوع من الطير، ريع: من الروع وهو الخوف مبنى للمجهول وحقه أن يقال ريعت لأن القطاة مؤنثة وتذكيرها شاذ. والأجدل: الصقر.
والبيت استدراك للبيت السابق، فبعد أن ذكروا في البيت السابق أن كلابهم صوتت، استدركوا هنا - كما تخيل الشاعر - فقالوا إن صوت الكلاب لم يستمر، وإنما كان صوتاً واحداً ضعيفاً ثم نامت الكلاب، وحينما صوتت الكلاب حسبناه وحشاً يطوف ببيوتنا، فلما سكنت الكلاب ونامت صرفنا هذا الاحتمال وعدلنا عنه، وقُلْنَا لعلها قطاة روعت أو طائر كالصقر، فأحست الكلاب بذلك ثم سكنت لأنه أمر غير ذي غرابة أن يصدر صوت خوف من طائر في عشه.

(٦٠) البرح: الشدة والقوة، وأبرح: تفضيل بمعنى أشد وأعظم، والطارق: القادم بالليل، والكاف في كها للتشبيه أي كهذا.
والمعنى أن حديث الذين أغار عليهم انتهى إلى التصجب والحيرة، فقد تعودوا أن الغارة يقوم بها جماعة أو عدد كبير، أما أن تكون بهذه الصورة الخافتة التي لا يشعر بها أحد ومع ذلك تترك هذه الآثار الخطيرة، فهذا شيء غير مألوف، فإن كان الذي أغار عليهم من الجن فهو أشد مغير بالليل وأبرعه، وهذا معنى الشطر الأول، وإن كان المغير من الإنسان: فالإنس لا تستطیع أن تفعل ذلك، فهم في حيرة بين أن يكون جنيماً أو إنسياً، وأصل صيغة الشطر الأول: إن يكن من الجن لهو أبرح طارق بمعنى أعظم طارق.
(٦١) الشعري: كوكب يطلع في فترة الحر الشديد يعنى يوماً من أيام الحر التي يطلع فيها =

نَصَبْتُ لَهُ وَجْهِي وَلَا كُنْ دُونَهُ
وَلَا سِتْرَ إِلَّا الْأَتْحَمِيَّ الْمُرْعَبِلُ^{٦٢}
وَضَافٍ إِذَا هَبَّتْ لَهُ الرِّيحُ طَيَّرَتْ
لَبَائِدَ عَنْ أَعْطَافِهِ مَا تُرَجِّلُ^{٦٣}

الشعري، واللؤاب: اللعاب والمراد به ما ينتشر في الحر مشبهاً بخيوط العنكبوت في الفضاء وإنما يكون ذلك حينما يكون الحر مصحوباً برطوبة، وهو أشد أنواع الحر مضايقة، والأفامي: الحية، والرمض: شدة وقع الشمس على الأرض، والرمضاء: مؤنث، وأرض رمضاء: أصابها الرمض وهو شدة الحر، وتتملعل: تتحرك وتضطرب. وسقية المعنى في البيت التالي.

ومعنى البيت أنه قد يمر بى يوم من أيام الحر الشديد الذي تنتشر آثاره حتى في الفضاء، والذي لا تعلقه حتى الأفامي التي تبتت في هذه البيئة وتعودت عليها.

(٦٢) نصبت له وجهي: تعرضت بوجهي وأقمته في مواجهته، ولكن بكسر الكاف: الستر وجمعه أكتان، والأتحمي: نوع من الملابس كالعباءة، والمرعيل: الممزق.

والبيت تكملة لمعنى البيت الأول، والمراد في البيتين أنني في اليوم الذي لا يطاق حره أواجه هذا الحر ولقح الشمس وليس على جسمي إلا برد ممزق لا يحجب عن الشمس أما وجهي فليست أملك ما يستره أو يحميه من الحر والشمس، فأواجه به هذا الحر الذي تتملعل منه الأفامي.

(٦٣) الضافي: السايغ يعني شعره، وهو سايغ طويل لأنه لا يملك ما يقصه به، واللباد جمع لبدة وهي ما تليد من شعره والتصق بعضها في بعض لأنه لا يغسل ولا يمشط. والأعطاف جمع عطف بكسر العين وهو الجانب، وترجل: ترحل وتمشط، وضاف معطوف على الأتحمي. والمعنى: لا أملك إلا البرد الممزق، وشعراً طويلاً ملبداً، إذا هبت عليه الريح ظلت لبائده متماسكة لشدة اتساعها، فالريح لا تفرقه، وإنما تطيره ليبدأ ليبدأ.

بَعِيدٌ بِمَسِّ الدُّهْنِ وَالْفَلْيِ عَهْدُهُ
لَهُ عَبَسَ عَافٍ مِنَ الْغَسْلِ مُحْوِلٌ ٦٤
وَحَرْقٍ كَظْهَرِ الثُّرْسِ قَفَرٍ قَطَعْتُهُ
بِعَامِلَتَيْنِ ظَهْرُهُ لَيْسَ يَعْمَلُ ٦٥
فَأَلْحَقْتُ أَوْلَاهُ بِأَخْرَاهُ مُوْفِيَاً
عَلَى قُنَّةٍ أَقْعَى مِرَاراً وَأَمْثِلُ ٦٦

(٦٤) بعيد: أى منذ زمن طويل يعنى شعره، والفلي: إخراج الحشرات من الشعر، والعبس: يفتح العيس والباء ما يتعلق بأفئاف الإبل والغنم من الروث والبعر والبول فيجف عليها ويصبح وسخاً حولها. عاف: أى كثير وهو وصف للعيس، ومحول: أتى عليه الحول، والأصل محول من الغسل يعنى أتى عليه الحول ولم يغسل. والبيت وصف للشعر، يقول إن شعره منذ زمن طويل لم يعرف الدهن والفلي، ومن كثرة تراكم الاقدار عليه أصبح له عيس يشبه ما يتعلق بأفئاف الإبل والغنم؛ لأنه يقضى الحول ولا يغسل.

(٦٥) الحرق: يفتح الحاء الأرض الواسعة، وكظهر الثرس: لأنها مستوية، وقفر: مقفرة ليس بها أحد، والعاملتان: رجلاه، وظهره: يعنى ظهر الحرق، ليس يعمل: يعنى لم يقطع الإنسان، والمراد ليس معسوراً ولا مطروقاً يعنى المكان وهو الحرق. والمعنى العام: رُب واد مقفر مستو ليس فيه مكان يحتوى فيه أو يلجأ إليه إنسان أقطعه على قدمي، وهو مكان غير مطروق. وتكملة المعنى فى البيت التالي.

(٦٦) ألحقت أولاه بأخراه: يعنى من شدة عذوى وسرعتي لم يعد هناك فارق بين أوله وآخره، فمنذ بدأت فى أوله كأتى لسرعتي أصبحت فى آخره، موفياً: مشرفاً، والقنة: يضم القاف وفتح التنون المشددة رأس الجبل وأعلاه، والإقامة: جلسة معينة، هى أن يلمص الرجل مقعده بالأرض وينصب ساقيه مستنداً بظهره، وأمثل: أنصب واقفاً، يعنى أجلس مرة على قمة جبل، وكان الصعاليك يتخذون من هذه القنن فى رهوس الجبال مراقب براقيون منها الطريق، وقد تحدث عنها الشنفرى فى كثير من شعره، يقول: ومرة أخرى أقف أو أسير، وفى البيتين يتحدث عن مقدرة على العدو والتنقل.

تَرُودُ الْأَرَاوِي الصُّحْمُ حَوْلِي كَأَنَّهَا
عَذَارَى عَلَيْهِنَّ الْمَلَأُ الْمَذِيلُ^{٦٧}
وَيَرُكُدْنَ بِالْأَصَالِ حَوْلِي كَأَنَّنِي
مِنَ الْعَصْمِ أَدْفَى يَنْتَحِي الْكِحَ أَعْقَلُ^{٦٨}



(٦٧) ترود: تذهب ونجى، الأراوى: جمع أروية وهي أنثى الوعل، والصحم: جمع أصحم وصحماء: وهي الوعول السود المائل لونها إلى الصفرة، والعذارى: جمع عذراء وهي اليكر من الإناث، والملاء: نوع من الثياب، والمذيل: طويل الذيل. والمعنى أن الوعول قد ألفتني فهي تتحرك حولى غير نافرة منى، وهي بشعرها وذيلها الطويلة كأنها عذارى حول رجل هو أنا.

(٦٨) يركدن: يثقلن ولا يتحركن، والأصال: جمع أصيل وهو الفترة فى آخر النهار من العصر إلى المغرب، والعصم: جمع أعصم، وهو الوعل الذى فى ذراعيه بياض، والأدفى: الوعل الذى طال قرنه جداً، وينتحى: يقصد، والكبح: عرض الجبل وجانبه، والأعقل: الممتنع فى جبل عال لا يوصل إليه.

والمعنى أن الوعول تثبت أو تنظّل ثابتة حين ترائى لأنها مشغولة أن ترائى، بل كان هناك ألفة وميلاً بينها وبينى؛ فكانها إناث تستمتع بوقت الأصيل حول ذكر قوى منيع، قد أوى إلى مكان يعتصم فيه من المخاطر، فيحقق لنفسه ولإنائه من حوله الأمن والطمأنينة. وفى هذا البيت الذى قبله يتحدث عن صلته بالوحوش، وأنها أصبحت إلفاً واطمئناناً حيث أصبح هو جزءاً من هذه البيئة، وفرداً من وحشها وإن كان أخطر من كل الوحوش.

نَسَبُ الشَّنْفَرَى

لم يختلف الرواة في نسبة الشنفرى إلى الأزد؛ ولذلك نتحدث عنه أغلب الروايات بأنه الشنفرى الأزدى، وإن كان لفظ الشنفرى لذاته أصبح من الشهرة بحيث لا يحتاج إلى زيادة تعريف أو توضيح، فهو عَلمُ فرد في التاريخ العربى قديمه وحديثه، لم يشارك فيه صاحبه -أو لم يزاحمه في الشهرة على الأقل - شخص آخر. وأما التسلسل القريب لأبائه، فأغلب الروايات تذكر أنه الشنفرى بن الأواس (بكسر الهمزة أو ضمها) بن الحجر (بكسر الحاء وسكون الجيم) بن الهيثم (بوزن كليب) بن الأزد.

وأما فرعه من قبيلة الأزد، فهو أزد شنوءة التى استوطنت منطقة السراة فيما بين مكة والمدينة^(١)، وتختلف الروايات في سبب وصفهم بشنوءة، فبعضها يجعلها من الشنآن وهو العداوة، ويسوق لذلك أحداثاً من الخصومة والعداء في أحداث تتعلق بخزاعة، سُموا من أجلها أزد شنوءة، وبعض الروايات يذكر أن شنوءة مخلاف باليمن، ومعنى ذلك أن نسبتهم هذه لبيان موطنهم من اليمن، بينما تذكر رواية أخرى أن موطنهم باليمن ليس شنوءة، وإنما أبيدة. ومهما يكن فالشنفرى أزدى، وفرعه من الأزد استوطن السراة، ولذلك يسمون أحياناً أزد السراة، وكان ذلك قبل الإسلام بزمان غير قصير.

مجمّل تاريخى:

قبل أن ندخل في شيء من التحليل والتعقيب على الشنفرى وحياته ينبغي أن نلم ببذة تاريخية مجملة، خالية من التعليق والتعقيب؛ حتى نستطيع بعد ذلك أن نجد في أذهاننا صورة ولو مجملة عن الشخص الذى نتحدث عنه، وعن حياته التى يتعرض لها الحديث.

وهناك نقاط تتفق عليها الروايات أو تكون في حكم المتفق عليها من حياة الشنفرى، وهناك نقاط تختلف حولها الروايات. فما تتفق عليه الروايات أنه أزدى من

(١) يذكر كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربى أن جبال السراة في نجد.

حيث النسب، وأن فرعه هو أزد شنوءة الذين عاشوا في منطقة السراة فيما بين مكة والمدينة، ومن المتفق عليه أيضاً أنه نشأ في غير قومه، حيث انتقل أو نقل وهو غلام صغير إلى قوم آخرين وهم بنو شيبانة بن فهم، ثم انتقل أو نقل منهم إلى بنى سلامان بن مفرج وهم من الأزد أيضاً، وأن حياته في هذا التنقل لم تكن حياة العزة التي يحظى بها أبناء المكان، وإنما حياة الدخلاء على القوم. ومن المتفق عليه أن عداوته تركزت على بنى سلامان حتى ألقى على نفسه أن يقتل مائة رجل منهم، وأنه ظل مصمماً ومستميتاً في تنفيذ وعيده هذا حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلاً قبل أن يدركه الموت، ومن المتفق عليه أيضاً أنه مات قتيلاً، وأن بنى سلامان في إحدى محاولاتهم التريص به والترصد له هم الذين قتلوه، ومن المتفق عليه أنه من أشهر صعاليك العرب وقطاع الطرق فيهم، ومن أشهر شعرائهم وأجودهم شعراً أيضاً. ومن المتفق عليه أنه من العدائين الذين لم يلحقهم خيل ولا أحد قط، وأنه بلغ من امتيازه عن غيره من العدائين أن ضرب به المثل في العدو^(١)، ومن طريف ما تساق عليه الروايات جميعاً بالنسبة للشنفري خبران غريبان، وغرابتهما هي مصدر الطرافة؛ أحدهما أنه حين مات لم يكن قتل إلا تسعة وتسعين من المائة الذين أقسم أن يقتلهم من بنى سلامان، وبعد موته بزمان لم تحده الروايات مر رجل من بنى سلامان فاصطدمت رجله بجمجمة الشنفري فَعَقِرَتْ، فمات، فاكتملت به المائة. والخبر الثاني أن الوصية الوحيدة التي أفضى بها عند موته حين هم أعداؤه يقتله هي ألا يدفنه، بل يتركوا جيفته في العراء غنيمة للضيع المشهورة بالبحث عن الجيف باعتبارها الطعام الشهى المفضل لديها، وقد صاغ الشنفري وصيته هذه في شعر من أشهر ما تحرص الكتب القديمة على إثباته وتداوله، حيث يقول في هذا الشعر:

فلا تقبروني إن قَبِرِي مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرٍ

وأم عامر كنية الضيع عند العرب.

وفي حكم المتفق عليه بين الروايات ضمناً أنه جاهلي، ولم يخالف في ذلك إلا صاحب القساموس المحيط؛ حيث عده من أغربة العرب الإسلاميين، وهم السود الألوان تشبيهاً بالغراب المشهور بالسواد، ومن الواضح أنه مجرد لبس من صاحب

(١) في بعض الروايات أن السليك ضُرب به المثل أيضاً في العدو دون إجماع على ذلك.

القاموس، حيث يركز همه كله على التحقيق اللغوي وليس التاريخ، وهو نفسه لم يسق هذا على أنه رأى أو مخالفة لغيره أو نحو ذلك، وإنما هو من باب تداعي المعلومات التي لا يعمد فيها صاحبها إلى تحقيق أو تدقيق علمي، فذكر «تأبط شراً» والشنفري ضمن الإسلاميين^(١).

وهذه الروايات على إيجازها من جهة، وعلى عدم اهتمامها بالتفاصيل من جهة أخرى إلا أنها ترسم الهيكل العام للشنفري وحياته بصورة فيها من الوضوح القدر الذي تستلزمه دراسة حياته وشعره.

وأما النقاط التي كانت موضع اختلاف بين الروايات: فمنها سبب انتقاله من قومه إلى آخرين، فبعض الروايات يذكر أن بني شيباه ابن فهم أسروه في بعض غاراتهم على أهلهم من بني الأواس بن الحجر، ثم أسر بنو سلامان بن مقرح - وهم من الأزد - رجلاً من بني فهم الذين أسروا الشنفري، فافتدى بنو فهم رجلهم بالشنفري، وبناء على ذلك انتقل الشنفري إلى بني سلامان مكان الفهمي، وعاش في بني سلامان كأنه واحد منهم حتى حدث من الأحداث ما جعله ينقم على بني سلامان ويعود إلى بني فهم. وبعض الروايات يذكر أنه لم يؤسر، وإنما عمده بنو سلامان إلى قتل والد الشنفري فلم تجد أم الشنفري من بني الحجر من يطالب بدمه فتقمت عليهم وانتقلت بالشنفري وهو صغير إلى بني فهم، فلما شب الشنفري أخذ يغير على بني سلامان مستعيناً في بعض غاراته ببعض بني فهم كصديقه تأبط شراً.

ولست هذه التفاصيل ذات قيمة كبيرة في مجال الدراسة الأدبية. وإنما يعني هذه الدراسة ما تتفق عليه الروايات، وهو أنه نشأ في غير قومه، ليحيا حياة غير عادية من حيث عدم تمتعه بالكرامة التي يحظى بها ابن القبيلة أو العشيرة، وهو يسجل هذه الحقيقة في شعره حيث يقول:

وَهْنِيَّ بِي قَوْمٍ وَمَا إِنِّ هَنَاتُهُمْ وَأَصْبَحْتُ فِي قَوْمٍ وَلَيْسُوا بِمَنْتِي

(١) من القرائن التاريخية التي تقرب تحديد زمن الشنفري أن صديقه تأبط شراً كانت له أخت تسمى آمنة تزوجت من نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي الذي أسلم ابنه عدى سنة ٨ هـ كما نقل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ١/ ١٠٤، ومعنى ذلك أن تأبط شراً كان في الجيل السابق للإسلام، والشنفري صديقه رغم أنه أكبر سناً ومات قبل تأبط شراً وورثه تأبط شراً بشعر، فيكون الشنفري أيضاً من الجيل السابق للإسلام.

وقد تحدث كثيراً في شعره عن نفوره من الهوان ومن الناس حينما يحس منهم ذلك، وهذا يشير إلى وضوح هذا الإحساس في نفسه.

وبما اختلفت حوله الروايات سبب تركه بنى سلامان؛ فأغلب الروايات تثبت أن بنى سلامان أخذوه فدية من بنى شيبابة بن فهم مكان رجل منهم، وأنه عاش في بنى سلامان كأنه أحدهم، ثم اختلفت الروايات في سبب نقمته عليهم وتركهم، فبعضها يذكر أن الرجل السلمي الذي كان الشنفرى يعيش عنده ويرعى إبله، كانت له فتاة تسمى قعسوس، والواقع أن هذا القدر موضع اتفاق بين الروايات، ولكن الاختلاف يبدأ بينهما بعد ذلك، فبعضها يذكر أن الشنفرى بعد أن تبناه السلمي حسب قعسوس اخته، بينما هي تعرف أنه أسيرهم، فطلب منها ذات يوم أن تعينه في غسل رأسه، فأنتفت أن يستخدمها فلطمته، فذهب يستوضح أباهما فعلم منه أنه أسير وليس ابنه، فكان ذلك سبب نقمته عليهم، وبعض الروايات يذكر أنه أحبها، وطمع أن يتزوجها، وحاول أن يُقْلِها فأنتفت ولطمته، وبعضها يذكر أن الشنفرى تزوجها فعلاً، وأن بنى سلامان استقبلوا أن يُصهر إليهم دخيل كالشنفرى، وأن أبا قعسوس كان يشعر بذلك ويتخوف أن يقتله أهله إن أصهر إلى الشنفرى، فأقسم له الشنفرى إن قتلوه ليقتلن به مائة منهم، وحدث أنه بعد أن تزوجها قتلوا أباهما فعلاً، فأخذ الشنفرى يعد نفسه في خفية لتنفيذ قسمه ويصنع النبال لذلك، وأنه حينما طال ذلك استنجزته قعسوس وعده، فقال لهما فيما قال:

كَانَ قَدْ - فَلَا يَغْرُرُكَ مَنَى تَمَكُّثِي - سَلَكَتُ طَرِيقاً بَيْنَ يَرِيعَ فَالَسَرْدِ^(١)

ومن الواضح أنه اختلاف غير ذي خطر إلا من زاوية تأثير السبب في نفسه، وما ترتب على ذلك في سلوكه وشعره، وستأتى مناقشة لهذا الجانب.

وهناك صور من اختلاف الروايات أقل خطراً، وأقل في مسالك الخلاف نفسه، ومن ذلك الاختلاف في نهاية حياة الشنفرى، فبعد أن تتفق الروايات على أنه ترك بنى سلامان ناقماً متوعداً، وأنه استطاع بغاراته المتلاحقة عليهم وترصده لهم أن يقتل

(١) جملة «فلا يغررك منى تمكثي» معترضة، أي لا تغتري بتمهلي وترى فكأن من شدة تصميمي على تنفيذ وعيدي سلكت فعلاً طريقاً بين هذين المكانين يريغ والسرد متجهاً إلى بنى سلامان للانتقام، وهو تعبير مألوف للإشعار باليقين من توقع حدوث الفعل.

منهم تسعة وتسعين رجلاً، وأنهم حاولوا أكثر من مرة أن يتمكنوا منه في كسمائن ومراصد فأفلت منهم بسرعه الخارقة في العدو، ويبقظته وحسه الشديد الإرهاف في التنبه للخطر، وأنهم أقاموا له رسداً محكما ذات ليلة وأنه بلغ من يقظته أنه أحس بالرصد. بعد ذلك تبدأ الروايات في اختلاف غير كبير؛ فبعضها يذكر أنه رمى بسهمه لمجرد إحساسه بمصدر خطر دون أن يتبين شيئاً، فأصاب أحد المترصدين فقتله، وبعضها يقول: بل شك ذراعه إلى عضده، وتعود الروايات إلى الاتفاق بأنهم تمكنوا من أسر الشنفرى وتسليمه لبني سلامان، ثم تعود إلى الاختلاف الهين حول طريق قتله، وحول اتفاق الآراء على قتله؛ فبعضها يسوق أن بعض بني سلامان كان يذكر للشنفرى قرابة النسب والعشيرة فيرى عدم قتله، ولكن أحد الموتورين يسارع إليه بضربة تقطع يده ثم يقتلونه. وبعضها يذكر أنهم عاجلوه بأسلوب التعذيب في الموت حتى قضى نحبه، وبعضها يذكر أن أحدهم رماه بسهم في عينه فقتله قائلاً له: «هل أطرفك؟» كما كان الشنفرى يقول لأحدهم حين يقتله.

● بيئة الشنفرى:

إذن فقد نشأ الشنفرى في منطقة السراة، وهي منطقة جبلية فيما بين مكة والمدينة، وأبرز معالمها الجبال، حتى إنها تسمى جبال السراة، وهذه البيئة من العوامل التي تسر لأبنائها حياة الصعلكة، أو تدفع بالمهيئين منهم إلى هذه الحياة، وذلك من جانبين؛ أحدهما أن البيئة الجبلية دائماً قليلة الخصب، فتسيطر الحاجة عادة على أكثر أبنائها، وهذا بطبيعة الحال يدفع بعضهم إلى اللصوصية وقطع الطريق، ممن يكون لديهم الاستعداد النفسى والجسمى لهذه الحياة، والجانب الثانى أن المناطق الجبلية أنسب الأماكن للمطاردين بما تيسره لهم من وسائل الحماية والتخفى سواء فى طياتها وكهوفها أو قممها.

فى هذه الأرض نشأ الشنفرى الأزدى، ولم تحدد الروايات وليس فى وسعها أن تحدد زمن ولادته، ولا زمن وفاته، وإن كان المرجح أنه كان فى الجيل السابق للإسلام مباشرة.

وأما البيئة الاجتماعية للشنفرى فقد كانت شديدة القسوة، وقد حالته هذه القسوة منذ عرف نفسه، وكانت شديدة الوفاء له فلم تتخل عنه حتى لقي حتفه، أو على

الأصح دفعته إلى أن يسلك الحياة التي لا بد أن يلقي فيها حتفه وهي الصعلكة، وكما كانت القسوة وفية للشنفرى هذا الوفاء المسر البغيض، فقد بادلها هو هذا الوفاء بصورة أشد مرارة وعنفاً، وألى أن يصب هذه المرارة على الناس، وألاً يتخلى عن ذلك، وقد التزم هذا الوفاء المقيت، حتى أودى به وفاؤه بعد أن أودى هو بكثير من الناس.

وتوضيح ذلك أن الشنفرى لم يعرف حياة الراحة والدعة قط، بل ولم يعرف حياة الاستقرار والانتماء الاجتماعى قط، فقد عدا عليه بعض العادين فى إحدى الغارات التي كانت تُغيرها بعض القبائل على بعض، والتي كانت شائعة مألوفة فى كل أرجاء الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكان الشنفرى حينئذ غلاماً صغيراً كما تصف الروايات حين أخذه أسيراً، وإذا به يجد نفسه أسيراً فى هذا الحى من بنى فهم. وبعض الروايات تذكر أنه لم يؤخذ أسيراً، وإنما انتقلت به أمه إلى بنى فهم حين قُتل أبوه فلم تجد فى قومه نصيراً يأخذ بشأراً زوجها، والذين قتلوه كما تذكر هذه الرواية هم بنو عمومته الذين أصبح الشنفرى فيما بعد آلد أعدائهم وهم بنو سلامان بن مفرج، وسواء كان انتقاله لهذا السبب أو ذاك، فالذى يعنينا أنه انتقل من بين أهله وموطنه إلى غرباء، وكان مضطراً ومكرها على هذا الانتقال، وكانت حياته فى هذا الانتقال غير كريمة ولا عزيزة فى كلا الاحتمالين؛ فحياة الأسير وحياة الجار، كلتاهما لم تكن تحظى بكرامة ابن القبيلة وعزته، بل كانت أقرب إلى الاعتبار والإذلال، وكان حتماً على الأسير أو الجار أن يقبل من سادته أبناء القبيلة صوراً من التعالى والتحقير لا بد أن تؤذى النفس الأبية إيذاءً غير يسير، وقد كانت نفس الشنفرى شديدة الإباء، وحينئذ يمكن أن نتصور أى إيلام لها كانت تعانيه منذ صباها فى حياة الأسر أو ما يشبه الأسر.

وليت الحياة على مرارتها دامت للشنفرى فى بنى فهم، فقد كان يحتمل أن يعود على هذه الحياة حتى تسوغ فى حلقه أو تكون قريبة من ذلك، ولكنه بتجرع المرارة من جديد، حيث يغير بنو سلامان على بنى فهم - كما تذكر الرواية الأولى - فيأسرون رجلاً منهم. ويدخل الفهميون فى مفاوضة مع السلاميين، تنتهى بأن يقبل السلاميون فديةً مكان الفهمى.

وهكذا كُتب على الشنفرى أن يترك بنى فهم بعد المدة التى قضاهما بينهم، والتي

يُعتقد أنها سنوات غير قليلة، والتي خرج منها بأصدقاء من بنى فهم منهم صديقه فى الصعلكة ورفيقه فى السطو والغارات «تأبط شراً». يخرج من بنى فهم ليعيش أسيراً فى بنى سلامان.

وليس من شك فى أن معيشة الشنفرى فى بنى سلامان كانت شديدة القسوة على نفسه، بالغة الإيذاء والإيلام لها. وليس من شك أيضاً فى أن النقمة التى يحملها الشنفرى لبنى سلامان لم ترتبط بسبب واحد محدد، وإنما كانت لآلام تجمعت فى نفسه حتى ملأتها حقداً وبغضاً لبنى سلامان. والروايات تذكر علاقة بين الشنفرى وقتاة من بنى سلامان، هى ابنة الرجل الذى كان الشنفرى يعيش عنده، وبعض هذه الروايات يشير إلى أن الشنفرى كان يحب هذه الفتاة التى تسمى قعسوس، وأنه حين أراد أن يتزوجها ترفعت عنه، وبعضها يذكر أن الشنفرى كان يعتقد أنها أخته فطلب منها أن تخدمه فى بعض شأنه فأنفت من ذلك وصفعته لأنها تعلم أنه أسير وليس أخاها. وليس شيء من ذلك بالمستبعد ولا بالمستنكر، ولكن المستبعد أن يكون الشنفرى قد حمل لبنى سلامان يوماً ما شيئاً من ود أو إلف أو حتى رضا، فإن ما حدث بعد ذلك - وهو ما تجمّع عليه كل الروايات - أن الشنفرى أقسم ليقتلن من بنى سلامان مائة رجل، لا يصلح نتيجة طبيعية لمجرد سبب من الأسباب السابقة، فليس مجرد رفض فتاة الزواج من شخص، أو حتى صفعها إياه لآى سبب كافياً لأن يحمل لقومها هذا البغض العارم المدمر، وهذا السخط الجامح العاصف، ولكن المنطق الذى يستقيم مع طبائع الأمور أن تتصور أن الشنفرى قد عانى من إذلال بنى سلامان، وامتلات نفسه بالمرارة من هوانه بينهم، ولكن شيئاً معيناً جعله يتحامل على نفسه، ويتحمل ما يقاسيه منهم، هو تعلقه بهذه الفتاة التى منى نفسه بحبها، وعلق آمالاً طوالاً عراضاً على حبها، متصوراً أنها ستبادل له حبها وإعجابه، وستكون عزاءً له عما يقاسيه من قومها، ومن المنطق أيضاً أن الفتاة لم تصده عن حبها وإعجابه بها، وما لها أن تصده وكل فتاة تبنى أن تكون موضع إعجاب الناس أجمعين؟ ولم لا تبادل شيئاً من عواطفه وهى فى حاجة إلى تسليّة فى ذلك المرعى المقفر من الشباب إلا أمثال ذلك الشنفرى؟ فليكن الشنفرى بالنسبة إليها خيراً من لا شيء، وليكن تمضية للفراغ، وتسليّة للوحدة، على أنه لا يخلو من مواهب تثير الإعجاب إن لم تثر

التطلع، فهو عداء لا يُلحق ولا يُسبق! ولم لا تشغل جانباً من نهارها تتابع حركة رجله اللتين تسابقان الريح! وهو شاعر عميق رقيق، فلماذا لا تمتع روحها بشاعريته وخاصة حينما يشير إلى جمالها وأنوثتها وحنينه الجارف إليها، قد يكون قبيح الشكل دميم الوجه منكر الشفتين، ولكن إهابه يحوى شخصية قوية صارمة ذات إرادة أشد قوة وصرامة، ولئن نفرت هي من شكله وحسبه فيهم، فإن أنوثتها لا تستطيع أن تنفر كل النفور من هذه القوة الصارمة العازمة في شخصه.

وهكذا مضت الحياة حيناً من الدهر بين الشنفرى وقَعَسوس فيما يمكن أن يتصوره متصور، وهي تمثل بالنسبة إليه الشعاع الوحيد الذى يلمع فى ظلمات حياته، والامل الوحيد الذى يجعل للحياة عنده قيمة ومعنى، والدواء الوحيد الذى يمكن أن يشفى جراح كرامته وعزته وما يعانى من هوان المقام فى بنى سلامان، وإذا لم يشفه فهو على الأقل الدواء الوحيد الذى يعينه على الاحتمال، وهكذا أخصب هذا الامل فى نفس الشنفرى وأفرخ، فصور له حياةً باسمه ومستقبلاً لا يخلو من بريق، حتى أصبحت قَعَسوس أمنية حياته ومصباح آماله.

وأما هي فقد كان الشنفرى بالنسبة إليها معيناً على حياة جافة خاوية قاسية، تستغل عواطفه نحوها مسخرة إياه، مستنزفة جهده، ليتحمل عنها كل ما تتطلبه حياة الرعى وجهد البادية، وليكون مصدر تسلية وترفيه ومتعة نفسه، ويمكن أن تقضى الحياة بينهما هكذا أمداً غير قصير، ويمكن أن يتدرج الشنفرى من مجرد الخيال والأحلام نحوها إلى درجة أو درجات من الصلة البريئة. ويمكن أن يحاول إبداء رغبته فى الاقتران بها مُلمّحاً أو مصرحاً. ويمكن أن تصده هي أو تماطله فى لبن أو عنف، ولكن ذلك لا يدفعه إلى ثورة أو نقمة، أما الذى يمكن تصوره دافعاً للشنفرى إلى ثورته العارمة المدمرة فهو أن يكتشف فى وضوح أنها كانت تخدعه ساخرة منه فيما بينها وبين نفسها، أو أن يكتشف أنها كانت تخون عواطفه ساخرة منها، موجهة عواطفها نحو فتى من قومها تراه كفواً لها، وفى كل الأحوال سنجد خديعتها إياه وسخريتها منه، من أهم مشعلات النقمة فى نفسه وليس مجرد رفضها إياه، أو حتى تعاليها عليه. ومن المنطقى أيضاً أن قومها بنى سلامان تناقلوا حب الشنفرى لقَعَسوس

وتطلعه إلى الاقتران بها ساخرين متتدرين من هذا العبد أو الخادم الذى تبلغ به الوقاحة أن يتطلع إلى درة من درر بنى سلامان، ولم يكن وضع الشنفرى الاجتماعى وحده هو مادة السخرية والتندر، بل إنهم سيجدون كثيراً مما يتندرون به ويستفكهون حيثئذ، ومن ذلك هذا القبح الشديد فى خلقة الشنفرى، وهذه الدمامة الكثيبة فى وجهه، وهذه القسومات المنكرة فيه، التى جعلت الرواة يصفونه بأنه من أقبح الناس وجهاً، وكذلك هذه النحافة الشديدة التى تجعله مجرد هيكل من عظام يابسة ضامرة.

ولم يكن ذلك وحده على إيلاسه لنفس الشنفرى كل ما أشعل نغمته وأوغر صدره، وإنما كان هذا الحادث على مرارته فى قلبه وكراهته مجرد انتكاسة لجراحه، وإزاحة للغشاوة عن بصره ليعود بصره حديداً يرى كل ما يعانى به من بنى سلامان، ولتعود ذاكرته شديدة الوعي والاسترجاع لكل ما مرّ به من آلام وإيذاء.

ولئن كان ما عاناه من بنى سلامان مؤلماً مؤذياً لكل نفس، فإنه فى نفس الشنفرى أشدّ إيلاًماً وإيذاءً من ناحيتين: إحداهما أن نفس الشنفرى ليست ككل النفوس فى إبانها الضيم وشعورها بالهوان، كما يقول هو عنها:

ولكن نفساً حرة لا تقسيم بي على الضّيم إلا ريشما أنحول

والناحية الأخرى أن بنى سلامان كانوا أقرباء الشنفرى فى النسل، حيث إنهم فرع من الأزد، كما كان بنو الحجر عشيرة الشنفرى من الأزد أيضاً، وإساءة القريب وخاصة صدور الإهانة والتعالى منه أشدّ إيذاءً للنفس مما لو صدرت من الغرباء، كما يقول الشاعر العربى القديم:

وظلّم ذى القُربى أشدّ مضاضةً على النفس من وقع الحسام المهند

ومهما يكن من شيء، فقد تجمعت كل عوامل النعمة فى نفس الشنفرى^(١) على بنى سلامان خاصة، وبعد أن كان أمله الوحيد فى الحياة يبرق من خلال ديارهم سواء تمثل هذا الأمل فى شخص قعسوس، أو فى أن يكون واحداً منهم، له مثل ما لهم من كرامة وعزة، بدل ذلك أصبح أمله الوحيد فى الحياة أن يشفى الغليل المتأجج فى

(١) بعض الروايات تذكر أن بنى سلامان كانوا قد قتلوا والد الشنفرى فأصبح طالباً للثأر منهم.

نفسه من أعدائه بنى سلامان، وقد كان غليلاً يشع اللهب، شنيع التاجع، وما كانت لتطفؤه مياه الأرض، وإنما تطفؤه دماء بنى سلامان، ولن تطفئه اليسير أو الكثير من دمائهم، وإنما تطفؤه الأنهار المتدفقة من هذه المادة. فما وعى التاريخ نقمة كانت أشد من نقمة الشنفرى على بنى سلامان، فقد آلى على نفسه والزمها أن يقتل منهم مائة نفس، ولم يكن مجرد العدد أو القتل كل مظهر النعمة، وإنما المظهر الحقيقي أنه نذر حياته كلها، وأفرغها من كل شيء إلا من حملته على بنى سلامان. وأهمية هذه الأحداث وأماكنها ليست لذاتها، وإنما لمدى تأثيرها في نفس الشنفرى وحياته.



الشتنرى والصعاليك

إذا كانت حياة الصعاليك تقوم على القوة فى مختلف جوانبها المادية والمعنوية، أو المباشرة وغير المباشرة، وكذلك كياناتهم فى المجتمع قام على هذه القوة؛ فإن الشتنرى حظى من هذه القوة - فى كل جوانبها على الإطلاق - بما لم يحظ به صعلوك آخر على الإطلاق أيضاً. وأن تجتمع جوانب هذه القوة كلها فى شخص واحد، وبدرجة يتفوق بها فى كل جانب على كل أفراد طائفته، فذلك وضع يجعل صاحبه فى المكان البارز المرموق، وهذا ما كان فيه الشتنرى - ليس فى حياته ومجتمعه فحسب - وإنما فى تاريخه وفيما ولى مجتمعه من مجتمعات وعصور.

أما فى عصره: فقد ضُرب به المثل فى أرجاء الجزيرة العربية كلها فى أكثر من جانب من جوانب القوة كما سيأتى، وليس هذا بالشئ اليسير. وأما بعد عصره: فمن الواضح أن شخصيته بكل مقوماتها ظلت حتى اليوم تثير التعجب، أياً كان الحكم على سلوكه، سواء فى هذا الإعجاب والتعجب الرواة والدارسون والمتناقلون لأخباره، وآية ذلك أن أخباره وصلت إلينا.

فقد مرت أخبار الحياة الجاهلية وهى تجتاز العصور بعصر كان كفيلاً بأن يقبرها، أو يقبر كثيراً منها، وخاصة أخبار الصعاليك، وهو العصر الإسلامى الأول، فإن الصعلكة بجرائمها وسلوكها العدوانى تنعارض تعارضاً أساسياً مع الإسلام وتشريعه. ولذلك وضع الإسلام لجرائمها حداً معروفاً بعقوباته، وكان هذا الإنكار الشديد الذى صبه الإسلام على الصعلكة كفيلاً بأن يكون حاجزاً يمنع انتقال هذه الحياة وأخبارها إلى العصور التالية لولا أمران: أحدهما: سماحة فى الدين الإسلامى استفساد بها البحث العلمى، وهى أنه لم يحجر على الرواية وتناقل الأخبار الجاهلية، ولم يمنع تناقلها فى أجلّ مجالس العلم، وأعظمها وقاراً. ولم يحلّ دون تدوينها فى الكتب - ولو كانت تتعلق بأشدّ الأحداث والأفعال بغضاً لدى الإسلام - ونظرة الإسلام حينئذ يسيرة واضحة، وهى التفرقة بين مزاولة السلوك والإخبار عن هذا السلوك، ويعبرُ العلماء القدامى عن هذه التفرقة بقولهم «ناقلُ الكُفْرِ ليس بكافر» ولئن كنا نرى اليوم هذه التفرقة يسيرة، فإنها لم تكن كذلك فى بداية الإسلام حينما كان الحماس الدينى

يملك على المسلمين كل تفكيرهم وكل حياتهم، خاصة وأن هذا الحماس كان منصباً على نقض الحياة الجاهلية، وخاصة منكراتها كالصعلكة. هذه السماح في الدين الإسلامي أتاحت للتاريخ والبحث العلمي أن يُلم بشيء غير قليل عن الحياة الجاهلية ومنها أخبار الصعاليك.

والأمر الثاني الذي كان من أسباب وصول أخبار الصعاليك إلينا، أن هذه الأخبار بما فيها من طرافة أو جوانب تثير الإعجاب والتعجب قد فرضت نفسها على الرواة والمؤلفين والمتناقلين، حيث يجدون أن هذه الأخبار من أثنى ما يروونه وما يتناقلونه، ومن أكثره إثارة للإعجاب والتعجب معاً، ولذلك نلاحظ أن الأخبار التي وصلت إلينا لم يكن معظمها مقصوداً به التاريخ لذاته، أو مجرد الرواية، وإنما روي لأنه يحمل خبراً طريفاً، أو حادثاً يثير قدراً كبيراً أو صغيراً من الغرابة والخروج عن المألوف.

وقد كانت أخبار الشنفرى كلها تقريباً تشير التعجب والاهتمام، حتى أخذت طابعاً يشبه الأساطير، وأصبحت شخصيته نفسها محاطة بهالة كذلك التي تحاط بها الشخصيات التي تنظر إليها الشعوب على أنها نماذج فذة من البطولة والمقدرة الخارجة عن المألوف، ذلك لأن كل مقومات شخصية الشنفرى كانت فذة إلى درجة فوق الوضع المألوف، سواء من الناحية الجسمانية أو النفسية أو العقلية، ويمكن أن نُلم في إيجاز بأهم جوانب قوة الشنفرى فيما يأتي:

١- قوة الإرادة:

من أبرز ما يميز الشنفرى هذا التكوين النفسى العجيب، الذى يحمل من قوة الإرادة وصلابة العزيمة ما يثير الإعجاب على مر العصور، والغرابة ليست في إرادته لذاتها؛ فالصعاليك جميعاً يحملون هذه الإرادة، ولكن في درجة قوتها، هذه الدرجة التي تكاد تفوق التصور، ومصدر هذه القوة أنه كان يتحكم في نفسه من جميع زواياها تحكمًا يجعله هو المسيطر والموجه لها، وليس هو المقيود أو الخاضع لها؛ فغرائزه جميعاً ملئكة له، وليس هو المملوك لها، وانفعالاته أيضاً كذلك، والروايات تجمع على هذه الحقيقة. وهو نفسه يبدع في شعره في تصوير سيطرته على غرائزه وانفعالاته، فهو يصف لنا كيف يقاوم الخوف حتى لا يكاد يشعر به، ويتحدث عن ذلك في صور وأحداث كثيرة منبثة في شعره كله، ويصف كيف يقاوم الجوع بأسلوب

طريف، وهو أن يتجاهل الشعور به، وكلما ألحَّ الجوع في تذكيره ألحَّ هو في التجاهل، حتى يتتصر، وإذا به يكاد ينسى أنه يعاني جوعاً شديداً، ويصف أيضاً صراعه وعدم مبالاته بالبرد الشديد الذي يدفع المرء إلى تحطيم قوسه التي يدافع بها عن حياته ليستدفي بها، وكذلك صراعه وعدم مبالاته بالحر الرهيب الذي يجعل الأفاعي تتململ من رمضائه، وهكذا يصف لنا إرادته الجبارة في صراعه مع كل شيء داخل نفسه أو من حوله، وهو في كل ذلك لا يهدف إلى وصف ذلك لذاته، وإنما لبنى أن كل هذه العوائق لم تكن لتثنيه عن عزمه، أو لتحول بينه وبين ما يريد؛ فلا الخوف ولا الجوع ولا الحر ولا البرد، ولا شيء قط يحول بينه وبين أن ينفذ ما صمم عليه، وأن يحقق ما عقد عليه العزم، ومن آثار ذلك أنه كثيراً ما كان يُغير بمفرده فيحقق من غارته كل ما يريد، كما كان يغير على بنى سلامان حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلاً.

٢- القوة الجسدية:

وتتمثل هذه القوة في سرعة العدو، فقد امتاز الصعاليك بأن عدداً كبيراً منهم قد وُهبوا في تكوينهم الجسماني مقدرة على العدو تكاد لا تصدق، ولكن الروايات تجمع عليها. وليست الغرابة في سرعة العدو ذاتها، ولا في العدد الكبير الذي كان يتمتع بهذه المقدرة من الصعاليك، فذلك يمكن أن يوجد في كل عصر وكل مجتمع، ولكن الغرابة في درجة هذه المقدرة، فبعضهم تجمع الروايات على أنه لم تلحقه خيل قط، وبعضهم تتحدث عنه الروايات في بعض الأحداث بأن الخيل سابتته لتلحقه يوماً كاملاً أو دون ذلك فلم تلحقه، ونحو ذلك من الصور التي يجعلها عدم الإلف موضع الغرابة، ولكنها مع ذلك ليست مناقضة للعقول، بل ولا للواقع.

وهؤلاء العداءون من الصعاليك كانوا يتميزون جميعاً بصفات جسمية معينة: أولها قوة التركيب الجسماني، ثم أمر آخر مشترك بينهم هو النحافة وضآلة الأجسام. فمن الواضح أن ثقل الجسم لا يعين صاحبه على هذه الحركة البالغة السرعة، والتي تحتاج إلى الخفة، وصغر الحجم، وقد وصفوا هم أجسامهم بطريق مباشر أو غير مباشر خلال شعرهم، فإذا هم يتفوقون فعلاً على صفة واحدة هي نحافة الأجسام، كما يقول عبيد بن أيوب العنبري عن نفسه:

وَأَيْنَ ضَمِيلُ الشَّخْصِ يَظْهَرُ مَرَّةً وَيَخْفَى مَرَارًا ضَامِرَ الْجِسْمِ عَارِيًا
ويقول الشنفرى:

وَأَلْفُ وَجْهِ الْأَرْضِ عِنْدَ افْتِرَاشِهَا بِأَهْدَأُ تُنْبِئُهُ سَنَاسِنُ قُحْلٍ^(١)
ويعلل عروة بن الورد تحول جسمه بأنه يفرقه من جوده وسماحته بالطعام فى
أجسام كثيرة. كما سبق فى قوله «أقسم جسمى فى جسوم كثيرة».

وأما عبيد بن أيوب، فيصرح بأن حياة الصعلكة هى التى جعلت جسمه فى هذا
التحول، حتى لو أن حمامة حملته لطارت به، كما يقول:

حَمَلْتُ عَلَيْهَا مَا لَوْ أَنَّ حَمَامَةً تُحْمِلُهُ طَارَتْ بِهِ فِي الْجَفَاجِفِ
رُحْبِلًا وَأَفْطَاعًا وَأَعْظَمَ وَامِقٍ أَضَرَّ بِهِ طَوْلُ السَّرَى فِي الْمَخَافِ^(٢)

ورغم أن حياتهم فى الصعلكة بما فيها من جهد وفاقة وجوع وحرمان كانت تفرض
عليهم أن يظلوا ناحلي الأجسام، إلا أن العدائين منهم كانوا يحرصون حرصًا واضحًا
متعمدًا على التزام هذا التحول، بحيث تبقى أجسامهم رقيقة خفيفة الحركة، لا تحمل
ما يثقلها أو يعوق شدة انطلاقها حينما تندفع فى العدو، وقد بلغ من حرصهم هذا
أنهم كانوا يتحاشون أن ترتوى بطونهم من الماء حين يشربون، وخاصة حينما يكونون
فى غارة، فهم أثناء الغارة أشد ما يكونون حاجةً إلى العدو، فلا أقل من أن يجعلوا
أجسامهم مهيأة له فى كل لحظة.

وقد اكتملت فى الشنفرى هذه المقدرة حتى بلغت أقصى ما عرفه العرب من قوة
وسرعة فى العدو من جهة، وصبر وطول نفس أثناءه، بمعنى أنه من حيث السرعة
ذاتها بلغ أقصى درجاتها التى عرفها الناس، ومن حيث المقدرة على تحمل العدو دون
كلل إلى فترة طويلة لم يعهدها الناس، بلغ أقصى ما يعهده الناس أيضًا، حتى
تحدث بعض الروايات أن الخيل لاحقته يومًا كاملاً فلم يهن ولم تلحقه الخيل. وقد
يكون فى هذا مبالغة، ولكنها تدل على مدى شهرته بالعدو ونتيجة لهذا كله ضرب به

(١) ألف: أتعود. الأهدأ: شديد الثبات يعنى جسمه. تنبيه: ترفعه. سناسن: رموس فقار الظهر. قحل: جافة.

(٢) عليها: يعنى الناقة. الجفاجف: الأرض الغليظة. والشطر الأول من البيت الثانى مضمونه أن جسمه
من جميع التواحي لا يعتبر جسمًا. والشطر الثانى منه تعليل لتحوله.

العرب المثل في العدو، وضرب المثل لا يأتي عفواً أو جزافاً، وإنما يكون حينما يبلغ صاحبه قمة ينفرد بها فيما ضرب به المثل فيه، وكذلك كان الشنفرى، فقد بلغ من قوته وسرعته واحتماله في العدو درجة لم ينافسه أحد فيها، فقالوا في أمثالهم: «أعدى من الشنفرى»، حتى إن بعض الروايات تذكر أن السليك بن السلوك ضرب به المثل أيضاً في العدو، فتتبرى روايات أخرى كما يذكر صاحب المقصليات تؤكد أن الشنفرى هو الذى انفرد بضرب المثل به في العدو.

والشنفرى يحدثنا في شعره - وخاصة في اللامية - عن نحوه وتكوينه الجسمى الذى ساعده على هذه المقدرة العجيبة في العدو، ويحدثنا أيضاً عن سرعته ومقدرته في عدوه، في صور كثيرة يكسو بعضها بخياله الشعرى، ومن ذلك أنه يسابق القطا إلى الماء، ويظل في سباقه مع هذا الطير، فإذا هو السابق. حتى إنه يشرب الماء حتى إذا جاء القطا لم يجد إلا سوره وبقايا شرابه كقوله: «وتشرب أسارى القطا».

٣ - الشاعرية:

لم يختلف النقاد في أن الشنفرى من الصفوة الممتازة في شعراء العرب. وأنه مهما كان الاختلاف في ترتيب الشعراء ووضعهم في طبقات ودرجات، فهو دائماً في المقدمة بالنسبة لشعراء العربية قاطبة، سواء كان في الطبقة الأولى أو في طبقة تليها، ولكن الذى يعنينا فوق ذلك أن الصعاليك - كما أشرنا فيما سبق - امتازوا بمنهج خاص في شعرهم، وهذا المنهج لفت نظر المجتمع إلى شعرهم وجعله يحظى بأهمية خاصة، وقد كان الشنفرى أبرز الصعاليك في شاعريته، وكان أبرزهم في هذا المنهج الذى لفت أنظار المجتمع وأثار إعجابه.

وحيث إن هذا الموضوع يمثل الغرض الأساسى لهذا البحث، لذلك لا نرى ما يدعو إلى بسط القول فيه، اكتفاءً بما سيأتى من توضيح وتفصيل له.

ولكن الذى يعنينا في هذا الموضوع أن هذه الشاعرية التى وهبها الشنفرى كانت من أبرز عوامل شهرته، ودعائم شخصيته التى أخذ ذكرها يزيد في أرجاء الجزيرة العربية، وما زال رنينها تتجاوب به الروايات، وتحمل صداه الكتب فضلاً عن تداوله بين السنة العصور وأذاتها.

٤ - عقلية الشنفرى:

اشتهر الشنفرى بعقلية شديدة اليقظة والعمق والحركة حتى إن الروايات تذكر أنه كان يضرب به المثل فى الحذق والدهاء^(١)، ويعنون بالحذق حدة الذكاء، ويعنون بالدهاء حسن التصرف فى المواقف المختلفة، وحسن التخلص والاحتياى للخروج من المأزق، وحينما يجتمع الأمران فى شخص: الذكاء وحسن التخلص والتصرف يكون فى درجة لامعة مرموقة، فإذا بلغ من ذلك إلى الدرجة التى يضرب به المثل كانت فيه أهم الدعائم التى ترشح صاحبها لأن يكون من الشخصيات التى ترمقها الشعوب، وتتناقل أخبارها الأجيال، أو من يسمونها بالشخصيات الأسطورية؛ فهذه الشخصيات تعتمد على بعض الصفات التى يتمناها كثير من أفراد المجتمع، ولكنهم لا يحظون بها، فإذا هم يجدون شخصاً قد حصل منها على قدر عظيم لا يتصور توافره فى شخص عادى، عندئذ تتطلع نفوس المجتمع إلى هذا الشخص، وتتركز خيالاتهم على شخصه، وفى أغلب الأحيان تضيف هذه الخيالات إلى أخبار هذه الشخصية قليلاً أو كثيراً من المبالغات، وقد تختلق أخباراً وحوادث تنسبها إليه ولا وجود لها. وقد حظى الشنفرى أيضاً ببعض المبالغات فى بعض الأخبار المنسوبة إليه - ما فى ذلك شك - فإن فى بعضها شططاً وفى بعضها ما لا تستيع العقول حدوثه بالصورة التى روى بها؛ كمطاردة الخيل هذه الفترة الطويلة التى ذكرتها الروايات، فإن عدم لحاق الخيل به قد يكون متصوراً ومقبولاً، ولكن استمرار المطاردة يوماً كاملاً هذا ما لا يهضمه العقل فى سر، وحين نفترض أن لهذه الأخبار أصلاً من الحقيقة فلن يلتوى علينا تفسيرها، حيث يمكن أن نتصور مثلاً أن المطاردة حقيقية، وأن عدم اللحاق به حقيقة أيضاً، ولكن المطاردة لم تكن متصلة أو مستمرة كما يوحى إطلاق الروايات لها، فهنا يمكن لمثل الشنفرى أن يستخدم ذكاءه ودهاءه الذى ضرب به المثل، فيستطيع أن يضلل مطارديه، وأن يشق عليهم بأنواع من الخدع والخيل، كأن يتسلق مرتفعاً لا تستطيع الخيل أن تنسلقه ثم يجتاز هذا المكان إلى مكان آخر، مختصراً طريقاً طويلاً، على الخيل أن تقطعه حتى تستمر فى ملاحقته، ونحو ذلك من الفروض التى لا تبعد عن العقول، ولا عن الواقع نفسه.

ومهما يكن من شئ، فإن هذه المبالغات والتزديدات التى نفترض تسخللها للأخبار

(١) شرح حماسة أبى تمام للثيريزى ١/ ١٨٧.

والأحداث المنسوبة للشنفري ومثله، تحمل في طياتها دلالة قوية على أن صاحبها كان شخصاً غير عادي، وأنه صدرت منه أعمال ومواقف كانت عند الناس كبيرة وغير عادية حتى أحاطوها بهذا الخيال، وأنه كان شخصاً غير عادي حتى ارتبطت به الأساطير.

وننتهي مما سبق كله إلى أن الشنفري كان شخصية غير عادية، وأن هذه المزايا التي تفوق فيها أو انفرد بها كانت موضع أمانى أفراد المجتمع؛ لأن حياتهم وظروف بيتهم كانت تدعو إلى ذلك، وحين اجتمعت للشنفري هذه المزايا بدأت أنظار المجتمع تنجس إليه، وخیالاتهم تسرح نحوه، بعضهم مُكَبِّر مُعْجَب، وبعضهم خائف متوجس، وبعضهم متطلع متأمل، ولكنهم جميعاً لا يملكون إلا أن يضمروا له التهيب والتقدير.

أمرٌ واحد ضنت به الظروف على الشنفري، ولم تسمح له أن يحظى به، وهو الانتماء إلى قوم يعيش بينهم، وترتبط بهم عواطفه، وهذا الشيء غير كل شيء في حياة الشنفري، وفرض عليه كثيراً من جوانب حياته التي عُرف بها، وهذا الشيء لو تيسر للشنفري فلعله كان سيرسم له حياة أخرى تختلف عن حياة الصعلكة، فقد كان يمكن أن يصبح سيداً مرموقاً في قومه، أو أن يصبح فارساً لامعاً من فرسان العرب، أو شاعراً يلتف الناس من حوله ويتنافسون على القربى منه والزلقى إليه. ولكن حرمان الشنفري من العيش في قومه، ثم إلزامه أن يعيش حياة العبيد الأذلاء، أو الأمرى المملوكين، لم يترك أمامه من سبيل سوى أن يحتمل ما استطاع الاحتمال، فلما ضاقت نفسه بالاحتمال هجر الناس وحياتهم ومجتمعاتهم - بكل ما تفيض به نفسه من نقمة وحقد على الناس وحياتهم - إلى حياة أخرى يستطيع أن يخلو فيها إلى نفسه وآلامه وهمومه، ويستطيع أيضاً أن ينتقم لنفسه من الناس جميعاً بكل أساليب الصعلكة من غزو وسطو وقطع للطريق، وأن ينتقم لنفسه من الذين تركزت عداوته عليهم وهم بنو سلامان، حتى قتل منه تسعة وتسعين رجلاً.



نهاية الشنفرى

وانتهت حياة الشنفرى بقصة تنفق الروايات على هيكلها وإن اختلفت فى بعض تفاصيلها، ومؤداها أن أعداءه طاملاً تربصوا به ورصدوا له فلم يتمكنوا منه، وكان يعينه على التخلص من الأخطار أمران: أحدهما يقظته العجيبة فى الإحساس بالخطر ثم التخلص منه، حتى ضرب به المثل فى الحذق والدهاء^(١)، والآخر سرعة الحارقة فى العدو حتى ضرب به المثل أيضاً فى العدو فيقال: «أعدى من الشنفرى»^(٢) وينقل الأصفهاني صورة من مقدرة الشنفرى فى العدو فيقول «ذرع خطو الشنفرى ليلة قُتل فوجد أول نزوة نراها إحدى وعشرين خطوة، ثم الثانية سبع عشرة خطوة»^(٣).

ولما حانت مئة الشنفرى قَدَّر لأعدائه أن يظفروا به، فقد ترصد له ثلاثة منهم ذات ليلة، هم خازم الفهمى، وأسيد بن جابر السلاماني، وابن أخ له لم تسمه الروايات، فمر عليهم الشنفرى فأحس بهم، وكان لا يحس خطراً ولا يرى سواداً إلا رمى صوبه، فرمى، فشكَّ ذراع ابن أخى أسيد إلى عضده، فلم يتأوه، فقال الشنفرى «إن كنت شيئاً فقد أصبتك، وإن لم تكن شيئاً فقد أمنتك» واستمر فى سيره حتى أصبح على رأس الرصد، وكانوا منبطحين على الأرض، فلما دنا منهم قال أسيد لخازم: «أسل سيفك»، ولكن الشنفرى كان إلى سيفه أسرع، فأهوى به إلى خازم، ولكنه لم يصب غير أصبعين من يده. وحينئذ كانوا قد أطبقوا عليه، ولكن الشنفرى استطاع أن يصرع اثنين منهم تحته، هما خازم وابن أخى أسيد، وجاء أسيد فترع سلاح الشنفرى منه، حيث استطاع المصروعان أن يتشبها بالشنفرى وهما تحته، فشلا حركته، وحين استطاع أسيد أن يجرده من سلاحه أصبح فى قبضتهم ولكنه لم يستسلم، فأمسك أسيد برجل ابن أخيه وقال: رجل من هذه؟ قال الشنفرى مغرراً به: هى رجلى، فقال ابن أخى أسيد: بل هى رجلى يا عم، وحينئذ قبضوا على الشنفرى ونقلوه إلى قومهم، وأرادوا أن يشقوا نفوسهم المتأججة بالنقمة عليه، فبدأوا بتعذيبه نفسياً

(١) انظر شرح الخطيب التبريزي لحماسة أبى تمام ١٨٨/١.

(٢) مجمع الأمثال ٤٦/٢.

(٣) الأغاني ١٨٥/٣١. وذرع: قيس. والنزوة: القفزة.

وجسدياً، فقالوا له: «أُنشدنا»، يريدون: أسمعنا من شعرك، قال: «إنما النشيد على المَسْرَّة» فذهبت مثلاً. ثم ضربوا يده فأصيبت ولم تنفصل عنه، فنقال في ذلك شعراً يرثى يده، ويفسر بما أدته من عظامهم ومشاهد، ثم قال له قائلهم: «أطرفك؟» قال الشنفرى «كذلك كنتا نفعل» وكان إذا أراد قتل واحد منهم قال له: «أطرفك؟» ثم يرمى عينه. ثم قالوا له حين أرادوا قتله: «أين نقبرك؟ فإذا هو يستنكر أن يقبروه، وهو يعلم أنهم لا بد أن يجتزوا رأسه ويفصلوها عن جسده، لتكون راحة لنفوسهم وشفاء لقلوبهم، فيقول لهم فيما يشبه السخرية العميقة المدلول: إن ما يبقى بعد رأسه ليس ذا شأن ولا يستحق الاهتمام به، وذلك في قوله:

لا تقبِروني إنَّ قبيري مُحَرَّمٌ عليكم، ولكن أبشِري أم عامر^(١)
إذا حملوا رأسي وفي الرأس أكثري وغُودر عند الملتقى ثم سائري^(٢)
هنالك لا أرجو حياة تُسرُّني سمير الليالي مُبْسلاً بالجرائر^(٣)

وقد أثرت هذه الأبيات بظرافتها وجرأتها وعمقها في نفوس القدامى من النقاد والمؤلفين، فحرص معظمهم على إثباتها في مؤلفاتهم. وبعد ذلك قتلوه.

وقد رثاه رفيقه وصديقه تأبط شراً معدداً بعض مآثر الشنفرى وآثار شجاعته، معاهداً إياه أن يبقى وفياً للصعلكة وغاراتها، وألاً ينسى ثأره للشنفرى، ومن هذا الشعر قوله:

على الشنفرى سارى الغمام ورائح غزير الكلى، وصيب الماء باكر

(١) الاغانى للأصفهاني ١٨٢/٢١، والشعر والشعراء لابن قتيبة ٧٠/١. وأم عامر: كنية الضبع وهي مشهورة بأكل الجيف، يشر الضبع بأنه سيكون طعاماً لها. وهو يرفض أن يدفنه تعقفاً أن يكون لهم عليه أى صنيع حتى في دفنه.

(٢) الملتقى: مكان الموت، وثم: هنالك، يعنى أن جسدى يدون رأسى ليس مهماً.

(٣) تكملة للبيت السابق يقول: إن مما يزهدنى في الدفن أننى لا أنتظر نعيماً ولا سعادة في قبرى بل على العكس ينتظرنى العقاب الطويل المدى على جرائمى؛ ففى البيت إشارة إلى إيمانه بالشواب والعقاب فى الآخرة. وسمير الليالي: يعنى طوال الليل، ومبسلاً بالجرائر: يعنى مرهوناً بالجرائم.

عليك جزاءً مثل يومك بالحباء وقد أرهفت منك السيوف البواتر
فإنك لو لاقيتني بعد ما ترى وهل يلقين من غيبته المقابر
لألفيتني في غارة أنتمى بها إليك وإما راجعاً أنا ثائر

ففي البيت الأول يدعو لقبر الشنفرى بأن يسقى من الغمام الغزير الماء. والكلى: جمع كلوة وتطلق على المنخفض من السحاب ويعنى بها الماء نفسه، والباكر: الذى يستقبل النهار فى أوله.

وفى البيت الثانى الجبأ: موضع بين مكة والمدينة، يشير إلى موقعة للشنفرى فى هذا المكان، وإلى أن سيوف الشنفرى يومئذ أرهفت، يعنى سالت بالدماء الغزيرة من الأعداء، قائلاً إنه يكفى من الغمام أن يمطر قبر الشنفرى مقدار هذه الدماء إذن يكون سقىاً عظيماً غزيراً.

وفى البيتين الأخيرين يقول: إنك لو لاقيتني - على افتراض - لقاء الموتى فإنك ستجدنى بين حاليين لا ثالث لهما: إما مزاولاً لسفارات الصعلكة وفاءً لرفقتنا فيها، وإما منتقماً لك، وثائراً لدمك من قاتليك.

هكذا انتهت حياة الشنفرى، ولكن الروايات جميعاً تُصِرُّ على عدم الاقتناع بأن الموت أخيراً هذه الشعلة، وأسكن هذه العاصفة، فتضيف إلى الشنفرى فترة لاحقة بعد موته، وكأنها امتداد لحياته، وذلك أنه كان قد أقسم ليقتلن من بنى سلامان مائة رجل، وكان حين أدركه الموت لم يقتل إلا تسعة وتسعين، فتؤكد الروايات بإجماع أن أحد بنى سلامان عثر رجله فى جمجمة الشنفرى فعقرت فمات، فكملت به المائة. بل إن بعض الروايات تتحدث عن الشنفرى بعد موته وقبل أن تكمل المائة وكأنه ما زال متربصاً أو منتحياً أن يوفى بقسمه، وهذه رواية الأصفهاني تقول: «فقتلوه وصلبوه؛ فليت عامساً أو عامين مصلوباً وعليه من نذره رجل، فجاء رجل منهم كان غائباً، فمر به وقد سقط، فركض رأسه برجله، فدخل فيها عظم من رأسه فعلت عليه، فمات منها، فكان ذلك الرجل هو تمام المائة»^(١).

(١) الأغاني ١٦٤/٢١.

ومع أن إجماع هذه الروايات لا يؤدي إلى الجزم بصحة هذه الحادثة، ففى نفوس الناس ولع بالغريب وبالطريف، ويكفى أن يخترع شخص فى بداية الأمر قصة يحاول إلباسها ثوب الحقيقة لينقلها عنه كثير من الناس عن حسن ظن أحياناً، وعن جهل أو تجاهل أحياناً أخرى. نقول مع أن إجماع هذه الروايات لا يؤدي إلى الجزم بصحة هذه الحادثة إلا أنه ليس هناك ما يمنع من حدوثها، وليس فى حدوثها ما يصطدم بالعقل أو ما يدخل فى باب المحال، وأيسر ذلك المصادفة؛ فليس هناك ما يمنع أن تتصادف عشرة رجل بعظام ميت، يكون الميت هو الشنفرى، وخاصة أنه أوصى ألا يدفنه، ولم تتحدث الروايات أنهم خالفوا وصيته ودفنوه، من المحتمل القريب حينئذ أن يؤدي هذا الجرح مهما صغر إلى تسمم فى الجسم فيودى بصاحبه.

ليس هذا بغريب، بل ما هو أبعد من ذلك ليس بغريب، والأبعد من ذلك أن يكون الشنفرى بعد موته - أعنى روحه - قد فعلت ذلك. وأيسر الإلزام بما أفاض فيه الباحثون حول الأرواح ومقدرتها على الحركة والعمل فضلاً عن الإدراك والعلم، أيسر الإلزام بذلك يذهب الغرابة عن هذه القصة، ولا يجعل حدوثها من روح الشنفرى بعد موته غريباً ولا بعيداً، بل إن ذلك لا يصطدم بالدين اصطداماً؛ فالدين لا ينفى فيما يتعلق بالروح شيئاً ولا يشبهه، وإنما يفوض أمره إلى الله سبحانه الذى اختص فيما اختص به بعلم الروح ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

وكما أن الروايات لم تستطع تحديد بداية حياة الشنفرى، فكذلك لم تستطع تحديد نهايتها. ولكن المرجح بوضوح أنها كانت فى الجيل السابق للإسلام مباشرة؛ حيث إن أمنة أخت «تأبط شرًا» - وهو صديق الشنفرى - تزوجت من نوفل بن أسد القرشى، وأسلم عدى بن نوفل فى السنة الثامنة للهجرة.

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

لامية العرب

تثير هذه القصيدة قضية ذات بال في الأدب العربي من حيث التنازع عليها بين العرب والعجم، ومعنى ذلك أنها ليست قصيدة عادية أو يسيرة الشأن، فالواقع أنها درة لامية في الأدب العربي كله، وقد تكون هناك قصائد أتيح لها قدر كبير أو صغير من الشهرة والذيع لارتباطها بأحداث معينة، ولكن لا تُعرف قصيدة أخرى في الشعر العربي كله تنافس لامية العرب في موضوعها بالذات، وفي مقدرتها على تصوير لون من الحياة العربية هو حياة الصعلكة، وعلى التعبير عن حياة طائفة من المجتمع العربي وهم الصعاليك، وعلى وصف بيئة معينة في الجزيرة العربية، هي البيئة التي اتخذ منها الصعاليك ميداناً لنشاطهم، ومركزاً ومنطلقاً لغاراتهم، بما تشتمل عليه هذه البيئة من خصائص في طبيعتها وفي حيوانها، وفي مناخها، وقد صيغ ذلك كله في ثوب شعري واضح الجودة بل واضح التمييز والتفرد، ولسنا في هذا التمهيد نريد التعرض لنقد القصيدة أو الحديث عن مزاياها، فإن لذلك موضعه فيما نستقبل من الحديث، وإنما نشير بذلك إلى الأهمية التي جعلت هذه القصيدة تحتل هذه المكانة حتى تصبح موضع تنازع بين الشعوب على ما في هذا التعبير من تجاوز، فالواقع أنه لم يكن ينبغي أن يشار حولها نزاع؛ فإنها قصيدة عربية خالصة، لشاعر معين مشهور هو الشنفرى. ولكنها لما تمثلت من قيمة أدبية فريدة تعرضت في القديم لمحاولة تشبه السطو، ولكنها لم تنجح؛ لأنها كانت محاولة غير قوية من جهة، كما كانت كل الظروف ضدها من جهة أخرى. ثم الغريب أن تعود هذه المحاولة بعد أكثر من ألف عام من المحاولة الأولى، وللغرض نفسه، وهو محاولة سلخها من النسب العربي في صورة التشكيك في نسبتها إلى الشنفرى، وأدعاء نسبتها إلى خلف الأحمر. ولتوضيح ما يتطوّر عليه هذا الإجمال يمكن أن نعرض جوانب هذه القضية فيما يلي:

صاحب لامية العرب هو الشنفرى، وقد ظل المجتمع العربي بما فيه من شعراء ورواة ونقاد يعرف ذلك ولا يرتاب فيه عدة أجيال متتالية، منذ الجاهلية حتى العصر

العباسي، ثم احتدم الصراع والتنافس العنصري بين العرب والعجم، وأصبح واضحاً عتياً بعد أن كان خفياً ليئاً، وحينئذ عم التنافس حتى غطى كل جوانب الحياة والمجتمع، فما يكاد العرب يفخرون بشيء حتى يتبرى العجم أو من يسمون حينذاك الموالي فيفاخرونهم بشيء مماثل، ومن الواضح أن الشعر كان من أهم ما شغل به العرب وتنافسوا فيه وحرصوا عليه في كل عصورهم القديمة، وأنه لم يستطع شاغل آخر أن يشغلهم عنه. بل كانوا يتحايلون في أحلك المشاغل وأهم المواقف ليكون الشعر عوناً لهم عليه، ومؤانسة لهم فيه، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون الشعر من ميادين التنافس بين العرب والعجم، فإذا كان في العرب شعراء، فليكن في الموالي شعراء، وإذا كان شعر العرب جيداً فليحاول شعراء الموالي أن يكون شعرهم منافساً لهذه الجودة إن لم يتفوق عليها، وإذا كان في تاريخ العرب شعر أو أدب يعتز به، فليبرز العجم ما في تاريخهم من أدب يعتز به، وهكذا فيما عرف بالحركة الشعرية التي تمثل الصراع والتنافس بين الشعب العربي والعنصر غير العربي، وخاصة الفارسي.

وهذه اللامية لم ينزع أحد في أنها درة أدبية متميزة، إذن فهي مما يعتز به الأدب العربي، ومما يحرص العرب على إبرازه حين يفاخرون بما في أدبهم من درر وروائع. وحين نضع أنفسنا موضع المتصور لمجتمع متنافس الطوائف والعناصر، نجد أن هذا التنافس يمثل له عادة أفراد في كل مجال من مجالات السياسة والاقتصاد والأدب وغير ذلك، بمعنى أن أفراداً من كل فريق عادة هم الذين يتصدرون هذا الصراع أو التنافس في كل ميدان، وبقية الفريق يقف من خلفهم مشجعاً ومتابعاً، ولكن الظاهر المتصدر هم هؤلاء الأفراد، حتى يبدو لمن يتابع الصراع من خارج الفريقين أنه صراع بين أفراد، وليس بين فريقين أو عنصرين.

واستمرت نسبة اللامية إلى الشنفرى دون أى شك فيها أو غبار حولها نحو أربعة قرون، نحو قرن قبل الإسلام، ونحو ثلاثة قرون بعده، ثم سمعت همسة خافتة بأن هذه اللامية خلف الأحمر، وليست للشنفرى، والذي نقل هذه الهمسة الوحيدة الخافتة هو أبو علي القالي الذي عاش فيما بين سنتي ٢٨٨هـ - ٣٥٦هـ، وقد كان دقيقاً وأميناً في نقل هذه الهمسة حيث حدد مصدرها صراحةً وبين رأيه فيها ضمناً: أما مصدرها فقد نقل عن أستاذه أبي بكر بن دريد الذي عاش من سنة ٢٢٣هـ إلى سنة

٣٢١هـ أن هذه اللامية المنسوبة إلى الشنفرى هى لخلف الأحمر، وذلك فى سياق حديثه عن خلف الأحمر، وأما عن رأيه فى هذه الهمسة؛ فهو وإن لم يناقشها صراحة فقد كان رده الضمنى عليها أبلغ من التصريح، حيث ذكر هذه الهمسة أو الغمزة فى الجزء الأول من كتابه الأمالى^(١) ثم جاء بعد ذلك فى الجزء الثالث من الكتاب نفسه وذكر نص اللامية كاملة^(٢) منسوبة إلى الشنفرى دون أى شك فى هذه النسبة، ودون أى اعتبار لهذه الغمزة التى سبق له أن نقلها عن ابن دريد. وانتهى هذا التشكيك عند هذا الحد دون أن يُحدث أثراً حتى فى الشخص الذى نقله ورواه. والسبب فى عدم تأثير هذا التشكيك أنه كما قلنا كانت قد انقضت نحو أربعة قرون والمجتمع يعرف اللامية ويعرف صاحبها، فلم يكن من السهل أن تحدث هذه المحاولة أثراً ظاهراً.

وقد يقال: إذا كان الأمر كذلك ففسيم الاهتمام بهذه الكلمة التى لم تحدث أثراً؟ والإجابة عن ذلك أنها وإن كانت لم تحدث أثراً فى حينها، فقد جاء فى العصر الحديث من المستشرقين من اتخذ منها خيطاً لإحياء هذا التشكيك، وإذا كان رأى العام فى القديم قد منع هذا التشكيك أن يُحدث أثراً لكون المجتمع يعرف اللامية ويعرف صاحبها، فإن هذا رأى العام فى عصرنا غير موجود، وترتب على ذلك أن أخذ بعض الدارسين العرب - بحسن نية فى أغلب الظن - يتابعون هذه النزعة التى نحاض فيها بعض المستشرقين.

* * *

(١) الأمالى: ١/١٥٥.

(٢) الأمالى ٣/٢٠٥ - ٢٠٨.

نماذج من نقد اللامية

ونعنى من هذه اللوحة استعراض بعض النماذج التي لا يراد منها الاستقصاء، وإنما مجرد التمثيل لأراء بعض أئمة النقد والعلم على مختلف العصور، فى لامية العرب، من حيث هى قصيدة، أو من حيث احتوائها على معانٍ تلفت النظر إليها فى تفوقها وامتيازها، ويمكن عرض هذه الأمثلة فى إيجاز كما يلى:

من القدامى :

١ - يقول أبو على القالى المتوفى سنة ٣٥٦هـ عن اللامية بوصفها قصيدة: «وهى من المقدمات فى الحسن والفصاحة والطول»^(١) فوصفها بأربع صفات محددة؛ أولها كونها من المقدمات، ثم الحسن والفصاحة والطول، ولكل صفةٍ منها مدلولها النقدي فى الأدب.

٢ - يقول أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥هـ عن بعض ما يلفت النظر من معانى اللامية لتفوقه وتمييزه: «وما هو فصيح فى لفظه، جيد فى وصفه، قول الشنفرى:

أطيل مطالَ الجوع حتى أميتَه وأضربُ عنه القلبَ صقعا فيذهل^(٢)

ثم يذكر البيتين التاليين لهذا البيت.

ورغم الإيجاز فى نقد العسكري - على عادة النقاد القدامى - فقد أشار إلى أن هذه الأبيات قد اكتملت فيها جودة الشعر، سواء من حيث اللفظ أو المعنى.

٣ - يقول ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦هـ فى سياق حديث عن صديقه العدوى النحوى: «كنت أعارض معه إعراب شيخنا عبد الله بن الحسين العكبرى لقصيدة الشنفرى اللامية إلى أن بلغنا إلى قوله:

(١) الأمايى ١/١٥٥.

(٢) المطال: بكسر الميم المماثلة. والمعنى: أغالب الجوع وأتغلبه حتى أتغلب عليه. وفى البيت هنا اختلاف عن الأصل. انظر كتاب الصناعاتين ٦٢.

وَأَسْتَفُّ تَرْبَ الْأَرْضِ كَيْ لَا يَرَى لَهُ عَلَى مِنَ الطَّوْلِ أَمْرٌ مُسْتَطَوِّلٌ^(١)
فأنشد أبياتا لنفسه في هذا المعنى، فقلت له: قول الشنفرى أبلغ؛ لأنه نزه نفسه
عن ذى الطول...^(٢)

فى العصر الحديث

أولاً: المستشرقون:

لقد كان للمستشرقين - كما سبق - الفضل فى لفت الأنظار إلى قيمة اللامية،
وإلى أنها درة أدبية فريدة تثير الإعجاب، وتبهر الأذواق الأدبية. ولا يقلل من هذا
الفضل أن يكون بعضهم هو الذى أثار الشك فى نسبتها إلى صاحبها، فكل جائر
مشتول وحده عن جوره، ولا تزر وازرة وزر أخرى، أما الغالبية العظمى من
المستشرقين فقد بلغ إعجابهم باللامية ما يشبه الافتان، وكأنهم حين يتحدثون عنها
يتغنون بها أو يتغزلون فيها. ومن هؤلاء على سبيل المثال:

١ - جورج ياكوب الذى ينقل تاريخ الأدب العربى^(٣) أنه ترجم اللامية، وفى مقدمة
هذه الترجمة يؤكد أن اللامية تنتهج مذهباً شعرياً ممتازاً لدرجة تنبئ عن صاحب
اللامية.

٢ - كارل بروكلمان، حيث يقول فى كتابه تاريخ الأدب العربى الذى نشر لأول مرة
سنة ١٨٩٨م «أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل. وعلى حين
يجعل الشاعر الجاهلى وصف الطبيعة، من الجبال والقيافى وغيرها غرضاً
مقصوداً لذاته، يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسى بهيج لتصوير
الإنسان نفسه وأعماله. وإذا فليس هناك ما يحملنا على موافقة الذين افترضوا
لهذه القصيدة اللامعة بين قصائد الشعر الجاهلى شاعراً آخر غير الشنفرى الذى
رُويت له القصيدة»^(٤) وكلام بروكلمان يتضمن أن اللامية استحدثت فى جودتها
منهجاً شعرياً فى الهدف والتصوير والتعبير، وقد كان يمكن أن تأتى قصائد

(١) معجم البلدان ٦٩٦/٣. والطول: الفضل والمن، والمتطول: النعمة المتفضل بها، والمعنى: أفضل أكل
التراب على نعمة يمن بها أحد على.

(٢) كارل بروكلمان ١٠٦/١.

(٣) المصدر السابق ١٠٦/١، ١٠٧.

أخرى تتابع هذا المنهج، كالمألوف عادة فيما يستحدث من منهج أو مذهب، ولكن الواقع أن اللامية لم تتكرر في مستواها الأدبي من أكثر من ناحية. وإلى نحو هذا يشير بروكلمان مع أنه لم يكن دقيقاً في تعبيره عن موقف أبي على القالي، فهو يقول في هذا السياق: «أما أبو على القالي فقد صرح في الأمالى بأنها من صنع خلف الأحمر» وهذا يوحي بأن هذا رأى أبي على القالي، والواقع أنه ليس رأيه، وإنما هو رأى أبي بكر بن دريد الذي يروي القالي كما سبق. أما القالي نفسه فيعرف أن الشنفرى هو المنسوبة إليه اللامية، وهو يؤيد ذلك، كما ساق نص اللامية منسوبة إليه في كتاب الأمالى نفسه.

٣ - نالينو: حيث يقول في محاضراته التي أُملاها في جامعة القاهرة عن تاريخ الأدب العربى: «أما الشنفرى الأزدي فصاحب اللامية المشهورة التي يفتخر فيها بانفراده من قومه ووحشة عيشه في البرارى، كأنه لم يعاشر إلا السباع، وهى قصيدة غاية في الجمال، تنطق بلسان حال الشاعر^(١). فهو يرى ضمناً أن الشنفرى يكفيه فخراً أن يكون صاحب هذه القصيدة، وأن هذه اللامية تكفى شرفاً لأى شاعر، بالإضافة إلى أنه جعلها تبلغ القمة في الجمال، وهو وصف لا يلقى جزافاً من عالم ضليع.

ثانياً: الباحثون العرب:

كان الباحثون المعاصرون من العرب أشد المتحذثين عن اللامية تحاملاً عليها، ومحاولة لهدمها من جهتين، أو لسببين، هما:

١ - مع أن الواضح كما سبق أن اللامية ثابتة النسب إلى الشنفرى وأن ما عدا ذلك لا يعدو أن يكون تشكيكاً غير أمين، أو غير دقيق على خير الفروض. إلا أن الباحثين المعاصرين من العرب تركوا الأصل، وهو ثبوتها للشنفرى، وجنحوا إلى الجانب الضعيف جداً وهو الشك في هذا الأصل، ولنا ندري لماذا؟ وحتى مع القول بأنهم إنما يتابعون في ذلك المستشرقين تحت دافع التأثر بهم والتلمذة العلمية لهم، نقول مع أن هذا واضح حقاً وخاصة في نقلهم أدلة التشكيك التي ساقها المستشرقون دون فحصها أو مراجعتها علمياً. نقول مع ذلك: فإن التساؤل قائم،

(١) تاريخ الآداب العربية كارلو نالينو ٧٢ والكتاب نص المحاضرات التي ألقاها سنتي ١٩١٠، ١٩١١م.

وهو لماذا تركوا موقف المستشرقين المؤيدين لثبوت اللامية للشنفرى وهم الغالبية العظمى، وانحازوا إلى الفريق الضعيف جداً من المستشرقين الذى حاول التشكيك فى نسبتها للشنفرى؟

ب - الناحية الثانية من ناحيتى هدم اللامية حينما تنتفى عن الشنفرى، أن اللامية تكاد تقتصر على تصوير حياة الصعاليك، وكل الذين تحدثوا عنها يعرفون ذلك ويقررونه لأنه واضح وواقع ملموس مشاهد، والشنفرى صعلوك، فهو الذى يوصف بالصدق الأدبى أو الفنى حينما نقول إنه صاحب اللامية؛ لأنه حينئذ يصور حياة حقيقية يعيشها ويعانيها، أما إذا نسبتها إلى خلف الأحمر أو حماد عجرد أو غيرهما من غير الصعاليك فستفقد اللامية دعامة أساسية تقوم عليها، ويقوم عليها أى أدب وهى الصدق الأدبى، وهو معنى يتفق النقاد على أنه من أهم الأسس التى يقوم عليها أى أدب حقيقى؛ فحينما نقول إن اللامية من صنع خلف الأحمر، الشاعر العالم الوداع، الغارق فى الدعة والطمانينة ولين العيش، والذى لم يتصعلك بإجماع الرواة، ولم يعاشر الصعاليك، ولم يخبر حياتهم، ولم يذق شيئاً مما تزخر به من مرارة العيش، ورهبة الحياة، وقلق النفس، وتوقع المكروه فى كل حين، وغير ذلك مما يمسى عليه الصعلوك ويصبح، ولا يجد شيئاً سواء فيما بين ذلك. حينما نقول إن اللامية من صنع خلف الأحمر نكون قد هدمنا اللامية هدمًا، وجعلناها أدباً زائفاً كاذباً، يبعد عن الحقيقة بمقدار بعد خلف عن حياة الصعاليك، وهو بعد لا نهاية له؛ لأنه لا وجه للمقارنة بين حياة خلف وحياة الصعاليك.

ولكن كارل بروكلمان يضيف إلى ذلك ملاحظة من صميم النقد الموضوعى، ليت باحثنا العرب كانوا أبصروها أو أشاروا إليها مع وضوحها، حيث يقول كارل بروكلمان: «ولكن القصائد التى وضعها خلف الأحمر تحتفظ دائماً بعمود الشعر القديم وطابعه، أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل» فمهما حاول خلف أن يقلد أو ينحل على غيره من الشعراء - حتى ولو كانوا من الصعاليك - فمنهجه هو الطابع التقليدى للشعر القديم، هذا الطابع الذى يسميه القدامى عمود الشعر، وكون الشعر للصعاليك لا يمنع أن يكون ذا طابع تقليدى.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
● مقدمة	٣
● لامية العرب (النص والشرح)	٣٣-٧
● نسب الشنفرى	٣٥
الشنفرى والصعاليك	٤٥
١ - قوة الإرادة	٤٦
٢ - القوة الجسدية	٤٧
٣ - الشاعرية	٤٩
٤ - عقلية الشنفرى	٥٠
● نهاية الشنفرى	٥٢
● لامية العرب	٥٦
● نماذج من نقد اللامية	٥٩
- من القدامى	٥٩
- فى العصر الحديث	٦٠
أولاً: المستشرقون	٦٠
ثانياً: الباحثون العرب	٦١

٩٩ / ٤١٠٨	رقم الأيداع ،
LS.B.N .977 - 241 - 2 67 - 5	الترقيم الدولي ،